أعلام المسلمين في العصر الحديث (١)

الدكتور مصطفى السباعي

قائد جيل ورائد أمة

حسني أدهم جرار

مؤسسة الرسالة
دار البشير

الدكتور مصطفى السباعي

قائد جيل ورائد أمة

الطبعة الأولى

١٤١٥هـ - ١٩٩٤م

رقم الإيداع لدى المكتبة الوطنية
(١٩٩٤/٤/٣١٨)

رقم التصنيف: ٩٢٢,١

المؤلف ومن هو في حكمه: حسني أدهم جرار

عنوان المصنف: الدكتور مصطفى السباعي قائد جيل ورائد أمة

رؤوس الموضوعات: ١- المسلمون - تراجم

٢- مصطفى السباعي - تراجم

رقم الإيداع: (١٩٩٤/٤/٣١٨)

الملاحظات: مكان النشر: عمان

الناشر/ دار البشير

سلسلة أعلام المسلمين



ص.ب (١٨٢٠٧٧) / (١٨٣٩٨٢)

هاتف (٦٥٩٨٩١) / (٦٥٩٨٩٢)

فاكس (٦٥٩٨٩٣) تلكس (٢٣٧٠٨) بشير

مركز جوهرة القدس التجاري / العبدلي

عمان - الأردن

Dar Al-Bashir

For Publishing & Distribution

Tel: (659891) / (659892)

Fax: (659893) / Tlx. (23708) Bashir

P.O.Box. (182077) / (183982)

Jerusalem Jewel Trade center Al-Abdali

Amman - Jordan

أعلام المسلمين في العصر الحديث

الدكتور مصطفى السباعي

قائد جيل ورائد أمة

حسني أدهم جرار

دار البشير
للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم



مقدمة الناشر

إن تاريخ الإسلام كتب على يد أولئك الرجال الذين ذكرهم رب العالمين بقوله: ﴿الذين آمنوا وزدناهم هدى﴾ ضحوا بدمائهم وأموالهم في سبيل نصرة الحق، وحمل اللواء. الذين يجدر بنا التعرف عليهم والتأسي بجلال أعمالهم، أولئك الأطهار المستغفرين بالأسحار، رهبان الليل، فرسان النهار.

أخذوا العلم فعلموا ووعوا واستوعبوا، وتحدثوا فملكوا مجامع القلوب بحجة قوية، وبرهان يغلق منافذ القول، تمثلوا بالفضائل وتكاملت فيهم صفات الإيمان والإخلاص والتفاني في سبيل خدمة هذا الدين فهم زعماء مطاعون، وفرسان شجعان، وقواد مجربون.

هؤلاء العلماء الذين ذكرهم رسول الله ﷺ في حديثه: «العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر».

وكما قال عليه الصلاة والسلام: «لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله، وهم ظاهرون على الناس».

وما نعيشه اليوم من تمزق وانقسام، وضيعة وهوان، يجعل المسلم يتطلع إلى قائد يقتدي به، ومفكر واعٍ، أو مجاهد يتقدم الصفوف، أو

حاكم عادل يسير خلفه صادقاً، لذا كان من الضروري أن نكتب سيرة هؤلاء العلماء الأعلام نذكّر الخلف بما كان عليه السلف فقد كانوا منارات الهدى، وحياتهم مادة تروي النفوس العطشى كالغيث أصاب أرضاً نقية شربت الماء فأنبتت الكلأ والعشب. فالقدرات الشخصية، والملكات التي يمنحها رب العالمين لبعض عباده فيتقدموا الصفوف، ويضربوا المثل هي التي يجب أن نبيّنها للناس.

ولا بد عند دراسة شخصية من هؤلاء أن نضعها في إطارها التاريخي الذي عاصرته، ونبين المؤثرات التي أثرت فيها، ثم نصدر حكماً عليها فالظروف التاريخية هي عامل هام في تشكيل الاطار العام للشخصية.

* * *

وتاريخ المسلمين حافل بشخصيات كبرى ربّاها الإسلام، وتخلقت بخلق القرآن فكانت المثل الذي يهتدي المسلم بهديه ويستضيء بنوره ويقتدي به، يرشده إلى الخير، ويحذره من مزالق الشر.

ونحن إذ نفخر بهؤلاء الرجال ونتتبع أخبارهم نعترف بفضلهم ونقف على سيرهم نستفيد منها ونقتدي بها لنكون خير خلف لخير سلف ونكون امتداداً لهم حلقة تتصل بحلقة نشارك في البناء الحضاري لأمتنا فيبقى المشعل مضيئاً، ونور الفضيلة مشعاً، ونحن في هذا نتمثل قول الله عز وجل:

﴿وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق، وموعظة وذكرى للمؤمنين﴾ هود [١٢٠].

﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب﴾ يوسف [١١١].

﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى البسمع وهو شهيد﴾ ق [٣٧].

* * *

والكتابة عن شخصية إسلامية معاصرة فيها بعض الجرأة والمسؤولية، ذلك أن هذه الشخصية بما تحمل من اتجاه فكري تنادي به مجانب للهوى ومعارض لما عليه غالب حكام اليوم من ميول، فلا يستطيع الكاتب أن يكتب بشمولية ودقة بحيث يستعرض الجوانب المختلفة لها، فقد لا تتيسر المصادر فيجتهد أو يستنتج أو يتخيل بعض الصفات أو النشأة والبيئة التي أحاطت بتلك الشخصية.

وقد يثير الكاتب موضوعات محددة ينبش ما خفي أو اختلف فيه فيصف ومن ثم يحلل ويعالج ويخلص إلى رأي محدد، وكل هذا محفوف بالمخاطر.

* * *

وكتابنا اليوم عن الدكتور مصطفى السباعي ـ رحمه الله ـ الذي كان شديد الحماس للإسلام تتوقد في قلبه حرارة الإيمان، هو محاولة إنصاف، وإن تأخرت وكلمة حق ترتفع بعد عشرات السنين من وفاته لتعطيه بعض حقه علينا.

وهي وقفة إجلال لهذا الرجل الذي وهب عقله وروحه وحياته للدعوة،

ونحن نعلم أننا لم نوف الرجل حقه، ولكنها لبنة على الطريق، يمكن أن تفيد القارىء والباحث فيطل على التاريخ الحديث للحركات الإسلامية.

وهي تحريض لبعض من عزم ـ منذ زمن ـ على كتابة تاريخ السباعي وفيها نطبق المنهج العلمي في البحث ونبين للناس بعضاً من مزايا هذا الرجل.

* * *

وإذا كان لتاريخ الأمة صلة متينة بحاضرها، فالفترة التي عاشها السباعي وجال في ميدانها كانت فترة مليئة بالأحداث والدروس والعبر مشحونة بالمؤامرات مثقلة بالأحزان، وهي بحاجة إلى دراسة مستفيضة تبحث عن نقطة للانطلاق في سبيل رسم معالمها لتؤدي رسالتها على الوجه الأكمل.

وخاتمة القول:

﴿**وتلك الأمثال نضربها للناس، وما يعقلها إلا العالمون**﴾ العنكبوت [٤٣].

والله الموفق.

رضوان دعبول

مقدمة الكتاب

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على معلم الدعاة وقائد المجاهدين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فهذا هو الكتاب الأول من سلسلة «أعلام المسلمين في العصر الحديث». . كتاب عن القائد الفذ، والمجاهد الصابر، والأستاذ المربي الشيخ الدكتور مصطفى السباعي . .

فقد كان السباعي رحمه الله علماً بارزاً من أعلام الفكر والدعوة والجهاد في زماننا المعاصر. . وكان منارة من منارات الإسلام الشامخة، ونموذجاً مشرقاً على امتداد تاريخنا الطويل. .

كان عالماً متفتح الذهن. . آتاه الله علماً واسعاً، وذكاء حاداً، وبديهة حاضرة، وأسلوباً في الحوار نادراً، وجرأة في الحق، وقدرة على التصدي للباطل، وقوة في الإيمان ويقظة الضمير. .

كان داعية جمع بين الإيمان العميق بالمبدأ، والفهم العميق بروحه، والعلم العميق بدقائقه وأسراره، والقلم السلسال واللسان العذب للتعبير عنه على صفحات الكتب والمجلات، ومنابر المساجد، ومنصة الجامعة، ومسرح السياسة. . وداعية عاش لدعوة الإسلام في حياته، ولم يكن يعنيه من دنياه إلا أن يطمئن على هذه الدعوة قبل مماته!!

كان أستاذ جيل، وقائد رعيل، وخطيب جماهير، وباعث نهضة. . وكان مصلحاً كبيراً وسياسياً واعياً، وعالماً باحثاً، وكاتباً أديباً، ومؤلفاً

منتجاً، وذكياً إلى درجة الحكمة.. وقلّما تجتمع هذه الصفات في رجل واحد، وقد جمعها الله فيه..

قال عنه الشيخ محمد أبو زهرة، وقد زار بلاد الشام، واجتمع إلى العلماء العاملين، فقال: إنه لم ير هنا - في بلاد الشام - أعلى من السباعي همّة، وأعظم منه نفساً، وأشدّ منه على الإسلام والمسلمين حرقة وألماً[1].

وإنّ من الوفاء لهذا القائد الكبير أن نسجل سيرته في هذا الكتاب ليقتدي به الشباب، وتتربّىٰ على نهجه الأجيال.

خطة البحث:

اعتمدت هذه الدراسة على عدد من المصادر والمراجع، وفي مقدمتها:

١ - مجموعة من كتب الدكتور السباعي.

٢ - مجموعة من الكتب والمراجع.. وقد أشرت إليها في هوامش الكتاب.

٣ - مقالات لعدد من العلماء والدعاة والأدباء.

٤ - مجموعة من أعداد مجلة حضارة الإسلام.

٥ - مقابلات شخصية أجريتها مع عدد من الدعاة والعلماء الذين عاشوا مع السباعي وشاركوه دعوته وجهاده.

وقسمت البحث إلى ثمانية فصول، هي:

الفصل الأول: تناولت فيه حياة السباعي.. وتحدثت عن ولادته

---

(١) الدكتور عدنان زرزور: مقدمة كتاب «عظماؤنا في التاريخ»، ص٣٩.

ونشأته، وطلبه للعلم، وعمله في التدريس والجامعة، وأسرته، وعن أبرز سماته وصفاته.

الفصل الثاني: تناولت فيه السباعي مؤسس حركة.. وتحدثت عن تأسيس الحركة، وعن أهدافها ونشاطها، وعلاقتها بالحركات الدينية والأحزاب السياسية، وعن نشاط السباعي خارج سورية، وعن الخلافات والانشقاق، وعن خليفة السباعي ونوابه.

الفصل الثالث: تناولت فيه السباعي قائد جهاد.. وتحدثت عن كفاحه الوطني وكفاحه ضد الانجليز والفرنسيين، وعن جهاده في فلسطين.

الفصل الرابع: تناولت فيه كفاح السباعي السياسي.. وتحدثت عن وقوفه مع القضايا الوطنية والعربية والاسلامية، وعن السباعي في البرلمان وعن معركة الدستور، وعن عدد من مواقفه، ومحاولة اغتياله، وخوضه الانتخابات التكميلية.

الفصل الخامس: تناولت فيه نشاطه الاجتماعي ورحلاته.. وتحدثت عن تبنّيه لحركة العمال، ومساعدة القرى والفلاحين، وانشاء المدارس والأندية، والتعاون الخيري.

الفصل السادس: تناولت فيه نشاطه في مجال العلم والبحث والأدب.. وتحدثت عن حركته الفكرية، وعن موسوعة الفقه الإسلامي، ونشاطه الصحافي، وعن مؤلفاته وشعره وحكمته ومكتبته.

الفصل السابع: تناولت فيه مرضه ووفاته.. وتحدثت عن المرض الطويل والآلام، وعن وفاته وتشييعه، والوفاء له.

الفصل الثامن: تناولت فيه كلمات وآراء بعض العلماء والأدباء في السباعي.

وفي ختام هذه المقدمة فإني أتقدم بالشكر والثناء لجميع الأخوة الذين قابلتهم للاطلاع على ما عندهم من معلومات.. وإلى كل من ساهم برأي أو قدّم معلومة ساعدت في إنجاز هذا الكتاب، والحمد لله رب العالمين.

المؤلف

الفصل الأول

حياة السّباعي

- ولادته ونشأته
- أسرته .
- مراحل حياته .
- طلبه للعلم .
- عمله في التدريس .
- السباعي في الجامعة .
  - إنشاء كلية الشريعة
- أبرز صفاته القيادية :
  - حب العلم والقدرة في الخطابة .
  - الشجاعة والجرأة والإقدام .
  - حب الجهاد .
  - الحلم والسماحة .
  - الصبر والتحمل .
- من سماته وصفاته :
  - الأخوّة والبذل .

- القدوة الحسنة .
- عذوبة النفس وشفافية الذوق .
- التزام الحق .
- عزّة النفس .
- تأثيره في إخوانه وشدّة حبهم له .
- سرعة البديهة والنكتة الحاضرة .

ولاته ونشأته :

ولد الدكتور مصطفى حسني السباعي عام ١٩١٥ في مدينة حمص بسورية، ونشأ في أسرة علمية عريقة هي من أكرم الأسر الحمصية وأغناها بالعلم والعلماء، منذ مئات السنين. وكان والده وأجداده يتولون الخطابة في الجامع الكبير بحمص جيلاً بعد جيل. وقد تأثّر في أول نشأته بأبيه العالم المجاهد والخطيب البليغ الشيخ حسني السباعي عليه رحمة الله. . فلقد كان لأبيه مواقف مشرفة ضد الأعداء المستعمرين فكان مقاوماً لهم بشخصه وماله وجهده، وكان في طليعة العاملين والمؤيدين للحركات الوطنية، وقد ساهم بقسط وافر في المقاومة المسلحة ضد الفرنسيين، وفي قيادة المجاهدين الثائرين ضد الاستعمار والطغاة المستبدين. . كما كان رحمه الله من محبّي الخير وأحد مؤسسي الجمعيات الخيرية الإسلامية والمشاريع الاجتماعية، مغيثاً للملهوفين، مدافعاً عن المظلومين والبائسين. . فكان لذلك أثر كبير في نشأة مصطفى السباعي منذ طفولته ويفاعته. ولقد رافقت نشأته أيضاً ظروف قاسية كانت تمرّ بها البلاد فكان لذلك كله أثره في دفعه منذ حداثته في طريق الكفاح الوطني ضد أعداء البلاد من المستعمرين والعملاء، وفي طريق الدعوة والجهاد لإعلاء كلمة الله. .

وكان يصحب أباه إلى مجالس العلم التي كان يعقدها مع لفيف من فقهاء حمص وعلمائها الأخيار. . وكان من بينهم الشيخ طاهر الريس، وسعيد الملوحي، وفائق الأتاسي، وراغب الوفائي، حيث كانوا يتدارسون

الفقه ويتناقشون في أدلة مسائله . . وكان مصطفى على صغر سنه يحضر مع أبيه هذه المجالس التي كان لها أثرها في تكوينه العلمي . وقد شجعه أبوه لدراسة علوم الشريعة وبخاصة دراسة الفقه المقارن، فصار رحمه الله عالماً فقيهاً من نوادر العلماء والفقهاء[1]، وكان فيما بعد المشجع الأول للشيخ مصطفى على خطته ومنهجه في الجهاد والإصلاح، ومحاربة البدع .

أسرته :

كان للدكتور مصطفى السباعي خمسة إخوة هم : نصوح وخالد وعبدالخالق وخير الله وعبدالرحمن، الذي ذهب مع أخيه مصطفى للجهاد في فلسطين ولم يكن يومها يتجاوز السادسة عشرة سنة . . وكان شقيقه الأكبر الأستاذ نصوح السباعي علماً من أعلام الدعوة في سورية، وكان رئيساً لمركز حمص قبل حل جماعة الإخوان المسلمين[2] .

وقد تزوج الدكتور مصطفى السباعي في دمشق ابنة المرحوم عبدالوهاب الطباع، وعندما تمت الخطوبة أخبر الخاطبون أهلها أن السباعي مشغول في معظم أوقاته بأعباء الدعوة ليكونوا على علَم بأوضاعه فوافقوا وتمت الخطبة . .

يقول الشيخ علي الطنطاوي عن هذه الخطبة :[3] «كانت حفلات الزواج الكبيرة كأنها ناد أدبي أو وطني، تلقى فيها الخطب الوطنية

---

(١) محمد بسام الأسطواني : مجلة حضارة الإسلام، الأعداد ٤، ٥، ٦، عام ١٩٦٤، ص١٢٥ .

(٢) الدكتور حسن هويدي : مقابلة معه في ١٩٩٣/١١/٣٠ .

وعدنان الطباع . . مقابلة معه في ١٩٩٣/١١/٦ .

(٣) علي الطنطاوي : ذكريات جـ٤، ص٢٩٧ .

والاجتماعية والعلمية، ويعلو منبرها أكابر القوم، ولست منهم، ولكني خطبت في عشرات منها، أذكر منها الاجتماع الضخم، يوم عقد أخينا في الله الخطيب البليغ المجاهد، الذي احتمل مرضه في سبيل الله الشيخ الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله».

وزرقه الله ثلاث بنات وثلاثة أبناء هم: حسّان ومحمد وعامر(٤).. وعندما انتقل السباعي إلى رحمة الله كان أولاده صغاراً.

مراحل حياته:

كانت حياة السباعي رحمه الله تختلف عن حياة الكثيرين من الناس.. فقد كانت حياة تختلف عن مراحل حياة الإنسان التي تعارف الناس عليها ـ من طفولة وشباب وكهولة ـ لأنها مراحل انجازات تمّت نتيجة سعي دائب وكفاح مستمر وجهاد متواصل.. وحتى نكون على بيّنة منها فسوف نوجزها بالمراحل التالية:

أولاً ـ مرحلة النشأة وطلب العلم: فقد نشأ السباعي في رعاية والده المربي الفاضل والعالم المجاهد، وكان يصحبه إلى مجالس العلم، ويشجعه على دراسة علوم الشريعة.

ثانياً ـ مرحلة فترة الاستعمار: رافقت نشأة السباعي منذ الصغر ظروف قاسية مرّت بها البلاد من استعمار وفساد وتخلّف.. فتمرّد على هذا الواقع السيء، وقام يجمع زملاءه وأصدقاءه ضد أعداء البلاد، وضد المظالم والانحرافات التي أوجدوها.. وأخذ هو ورفاقه يوزعون المنشورات داعين فيها إلى محاربة الاستعمار ومظالمه. وكان يخطب الجمعة ويقود المظاهرات مع رفاقه داعياً إلى مقاومة الاستعمار.

---

(٤) الدكتور حسن هويدي: مقابلة معه في ١٩٩٣/١١/٣٠.

وفي عام ١٩٤٥ عندما بدأت المقاومة المسلحة.ضد الاحتلال الفرنسي كان للسباعي وإخوانه دور في هذه المقاومة .

ولما ذهب إلى مصر للدراسة في الأزهر اشترك مع إخوانه أبناء مصر في العمل الوطني وقيادة المظاهرات ضد الاحتلال البريطاني .

ثالثاً ـ مرحلة تأسيس الدعوة : بعد عودة السباعي من الدراسة في مصر اتصل بعدد من الدعاة وقادة الجماعات الإسلامية في دمشق وحلب وحمص وحماة ودير الزور واتفقوا جميعاً على توحيد هذه الجماعات وأعلنوا قيام جماعة الإخوان المسلمين في سورية ، واختاروا السباعي أول مراقب عام للإخوان سنة ١٩٤٥ .

رابعاً: مرحلة بداية الاستقلال : كان للاستعمار الفرنسي في سورية آثار اجتماعية وسياسية سيئة ، وكان من أبرزها انتشار الجهل والفساد والتخلف والمظالم الاجتماعية . . وقد تحسس السباعي وإخوانه هذه المظالم والمآسي ونادوا بالإصلاح السياسي ، وبدأوا كفاحهم الوطني في الدعوة إلى إقامة حكم صالح يزيل مساوىء الاستعمار، ووجهوا النصح إلى الحكومات الوطنية ، وشاركوا في الانتخابات النيابية ، وقاوموا الانحراف في الحكم والإدارة والسياسة .

وفي الجانب الاجتماعي قاموا بخدمات اجتماعية جليلة . . فتبنّوا حركة العمال ، وعملوا على رفع مستوى القرى والفلاحين ، وأنشأوا المدارس والمعاهد والأندية الرياضية ، وأقاموا المخيمات الكشفية ومراكز الفتوّة ، وكانوا سباقين في أعمال التعاون الخيري .

خامساً ـ مرحلة الجهاد في فلسطين : كان للسباعي دور بارز في أحداث القضية الفلسطينية ، فكان يعتبرها قضية عقيدة ومقدسات

مهددة. . ولما بدأ القتال عام ١٩٤٨، قاد كتيبة من إخوانه وشارك بنفسه في معارك منطقة القدس.

سادساً ـ مرحلة النيابة ومعركة الدستور: في عام ١٩٤٩ جرت انتخابات نيابية لاختيار مجلس نيابي تكون أولى مهامه وضع دستور للبلاد. . واشترك السباعي وعدد من إخوانه في الانتخابات. . وقاد السباعي معركة الدستور تحت قبة البرلمان، وتمكن هو وإخوانه من استبعاد الطابع العلماني عن الدستور، وفرض الطابع الإسلامي. . وبعد مناقشات استمرت ثلاثة أشهر تم وضع مواد إسلامية في صلب الدستور ومن أهمها «أن الإسلام دين الدولة الرسمي». .

وكان هذا الإنجاز هزيمة للعلمانية والعلمانيين، الذين أوجدهم الاستعمار الفرنسي وأوكل إليهم مهمة المحافظة على الصبغة العلمانية للبلاد وإبعاد الطابع الإسلامي عن كل أمر من أمور الحياة.

سابعاً ـ مرحلة الانقلابات العسكرية: كان السباعي أشد الناس بغضاً للانقلابات العسكرية، لإيمانه أن السبيل الوحيد للإصلاح أياً كان هو الفكر الحر والمنطق العلمي المبني على الحجة المقنعة. . ولهذا فقد وقف السباعي ضد هذه الانقلابات وطالب العسكريين بإعادة الحياة النيابية للبلاد. . وتحمّل في سبيل ذلك الأذى والنفي من البلاد.

ثامناً ـ مرحلة تأسيس كلية الشريعة: كان للسباعي دور كبير في تثبيت دعائم الإسلام في بلد كرّس الاستعمار الفرنسي جميع طاقاته لإبعاده عن الإسلام وتوجيهه إلى العلمانية. . فكان السباعي أحد العلماء البارزين الذين عملوا على إدخال مادة التربية الإسلامية إلى المناهج المدرسية - بعد أن أبعدها الاستعمار عن المناهج - ثم اعتمادها كمادة أساسية تحسب في نتائج الامتحانات، كما تمكنوا من زيادة عدد الساعات

لتدريس هذه المادة.

وكان للأستاذ السباعي الجهد الأكبر في إنشاء كلية الشريعة بجامعة دمشق.. فقد عمل مع عدد من إخوانه في الجامعة على إنشائها، وبذل من الجهد والمساعي الشيء الكثير حتى تمكن من هذا الإنجاز الذي انتزعه انتزاعاً في بلد بذل الاستعمار الفرنسي أقصى جهوده لإفساده وإبعاده عن الإسلام، وغرس فيه قبل خروجه منه ركائز علمانية لتحافظ على ثقافة المستعمر وقوانينه.. فجاء إنشاء كلية الشريعة ميلاداً جديداً للفكر الإسلامي في البلاد..

وتوّج السباعي هذا الإنجاز المبارك، فعمل بالتعاون مع إخوانه الذين شاركوه إنشاء كلية الشريعة، على إنشاء موسوعة للفقه الإسلامي تهدف إلى إحيائه وصياغته صياغة جديدة، وتبويبه وتصنيفه، على أحدث الأساليب، لتكون مرجعاً لكل عالم وفقيه ولتلبي حاجة التشريع.

تاسعاً ـ مرحلة المرض ومغالبة الآلام: كان السباعي رحمه الله يحمّل جسمه وأعصابه الكثير من الإرهاق والعمل المتواصل في سبيل الله، مما جعل هذا الجسم ينوء بالأثقال ويقع فريسة للمرض..

ومع شدة المرض فلم تخبو شعلة نشاطه أو تدفق حيويته.. فكان يلقي دروسه الجامعية، ومحاضراته التوجيهية.. وقد ألقى خلال فترة مرضه أهم محاضراته العلمية، وألّف معظم كتبه وأبحاثه.

وضرب السباعي خلال مراحل مرضه أروع آيات الصبر مع ما فيه من الرضا والتسليم لقضاء الله، فكان نموذجاً فريداً في طاعته لربّه والتسليم لقضائه.

وسوف يأتي الحديث عن مراحل حياته بالتفصيل في فصول هذا

الكتاب إن شاء الله .

طلبه للعلم :

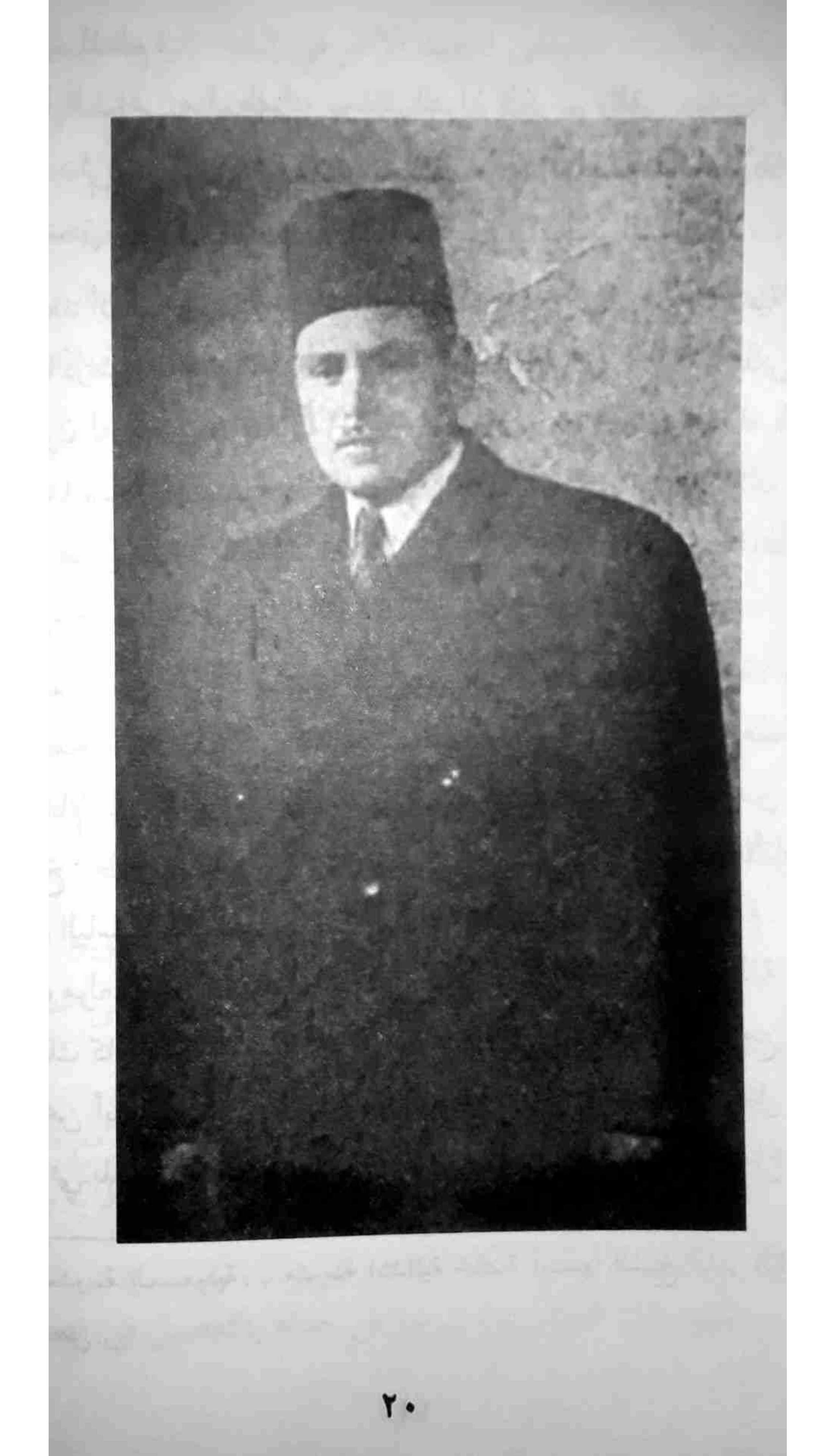
بدأ السباعي منذ طفولته بحفظ القرآن الكريم وتلقي مبادىء العلوم الشرعية على أبيه حتى بلغ السن التي تخوله دخول المدرسة الابتدائية، حيث التحق بالمدرسة المسعودية[٥] .

وبعد أن أتم فيها دراسته بتفوق ظاهر، التحق بالثانوية الشرعية حيث أتم فيها دراسته عام ١٩٣٠ بنجاح باهر لفت أنظار كبار أساتذته الذين كانوا يتوقعون له مستقبلاً علمياً زاهراً، لما كان يتمتع به من الذكاء المبكر والنباهة المتوقدة والبديهة الحاضرة، والنشاط المتوثب. . فقد كان رحمه الله منذ صغره حركة دائبة لا تعرف الكلل ولا الملل ولا الفتور، فكان لذلك محط إعجاب أساتذته وأقرانه وجميع معارفه. .

ولم يقتصر في دراسته الشرعية على المناهج المدرسية، وعلى حضور مجالس العلم التي كان يعقدها والده مع كبار الفقهاء والعلماء. . فكان بالإضافة إلى ذلك يتردد على غيرهم من علماء حمص أمثال المشايخ : طاهر الأتاسي مفتي حمص في ذلك الوقت، وزاهد الأتاسي، ومحمد الياسين وغيرهم، ويتلقى عنهم العلوم الإسلامية المختلفة. . كما أنه كان مولعاً بالمطالعة والبحث في كتب الأدب والثقافة المختلفة. وفي أثناء ذلك كان يلقي خطبة الجمعة في كثير من الأحيان في الجامع الكبير نيابة عن أبيه وهو فتى لم يتجاوز الثامنة عشرة، مما جعله يحتل مكانة مرموقة في بلده، ويحوز إعجاب المصلين الذين كانوا يتوقون لسماع خطبه

---

(٥) المدرسة المسعودية. . مدرسة ابتدائية خاصة أسسها الشيخ طاهر الرئيس في حمص.



القوية الحماسية التي طالما ألهب فيها المشاعر، وأيقظ العقول والقلوب بجرأة نادرة، وعرض جذّاب وأسلوب مثير وفكرة واضحة . .

ورأى بعد ذلك أن يتابع دراسته الشرعية، فسافر إلى مصر والتحق بقسم الفقه بالجامعة الأزهرية في عام ١٩٣٣ ، فنال تقدير أساتذته هناك لما أبداه من تفوق جعل اسمه على ألسنة أساتذته وزملائه . ثم انتسب إلى كلية أصول الدين، ونال إجازتها بتفوق، والتحق بعدها بقسم «الدكتوراة» لنيل شهادتها، في التشريع الإسلامي وتاريخه، ولكن الإنجليز قبضوا عليه وأخرجوه من مصر في عام ١٩٤٠ لأنه كان يحرض الشعب المصري للثورة ضد المستعمر البريطاني[٦] .

وفي عام ١٩٤٩ ذهب إلى مصر بعد أن أعدّ أطروحته العلمية «السّنة ومكانتها في التشريع الإسلامي» للحصول على درجة الدكتوراه . . ونال درجة الامتياز بعد أن ناقشتها لجنة من كبار علماء الأزهر. وقد حاز إعجاب اللجنة التي ناقشته بدقته العلمية واستيعابه للموضوع من كل جوانبه، ولما أبداه من دفاع عن السّنة النبوية التي كانت مستهدفة من قبل أعداء الإسلام، وبيّن أخطاء المستشرقين وتلاميذ المستشرقين الذين حاولوا تشويه صورة الإسلام ، فأعادها نقية كما كانت، وردّ كيدهم إلى نحورهم . وقد أصبح هذا الكتاب القيّم من أهم المراجع العلمية في موضوعه، ومن أمضى الأسلحة في الدفاع عن السّنة ومكانتها في التشريع الإسلامي لكل باحث وعالم وطالب علم[٧] .

---

(٦) عبدالله الطنطاوي : كتاب «الشيخ مصطفى السباعي» ص١٤ .

(٧) محمد بسام الأسطواني : مجلة حضارة الإسلام، الأعداد ٤ ، ٥ ، ٦، عام ١٩٦٤ ، ص١٢٧ .

عمله في التدريس:

أحبَّ الدكتور السباعي مهنة التدريس، رغبة منه في نشر العلم وتربية النشء وإعداد الأجيال إعداداً يناسب ما ينتظرها من مسؤوليات وأعباء لتحرير البلاد من الاستعمار وآثاره، وليساهموا في بناء مجتمعهم على أسس متينة من العلم والأخلاق والشعور بالمسؤولية. لذلك انخرط في سلك التعليم فكان يدرّس اللغة العربية والتربية الدينية في مدارس حمص الثانوية، ثم انتقل إلى دمشق وعمل مع فئة من إخوانه على إنشاء مدرسة تحقق مايصبو إليه من أهداف في التربية والتعليم فأسس «المعهد العربي» في دمشق، والذي انضمت إلى إدارته فيما بعد جمعية التمدن الإسلامي، رغبة في توسيع المشروع ودعمه، وأصبح اسم المعهد «المعهد العربي الإسلامي»، وفتحوا له فروعاً في أكثر المحافظات. وكان السباعي رحمه الله أول مدير لهذا المعهد، الذي خرّج في زمانه عدداً كبيراً من الطلاب، ممن شغلوا فيما بعد، وظائف تدريسية وغيرها من مختلف الوظائف والأعمال، وكانوا خيرة ما انتجته المدارس في سورية علماً وخلقاً وشعوراً بالمسؤولية[٨].

السباعي في الجامعة:

إن مؤهلات السباعي الفطرية وإمكاناته العلمية، وطاقاته المتعددة، كانت تؤهله لمهمة كبرى، فقد وقع عليه الاختيار، ليكون أستاذاً في كلية الحقوق بجامعة دمشق. وعُيّن فيها منذ عام ١٩٥٠ فكان من ألمع أساتذة الجامعة في فن التدريس، وخصب الانتاج العلمي. ولكن هذا المنصب

---

(٨) مجلة حضارة الإسلام، الأعداد ٤، ٥، ٦، السنة الخامسة عام ١٩٦٤، ص١٢٨.

الجديد، لم يكن ليستوعب إلا جزءاً من نشاطه وطاقاته المتوقدة. . كما أن طموحه العلمي وشعوره بالمسؤولية نحو دعوته وفكرته وبلاده، كان أكبر من أن يقنعه بما وصل إليه، ففكر مع بعض إخوانه الأساتذة في إنشاء كلية خاصة مستقلة للشريعة الإسلامية، تكون إحدى كليات الجامعة، وتعمل على تخريج علماء على أرفع المستويات العلمية والفكرية، وأراد أن يثبت بذلك جدارة التشريع الإسلامي لتحقيق الخير والتقدم والازدهار لأمتنا. . وقد نجحت مساعيه رغم العراقيل والصعوبات التي وضعت في طريقه، لإخراج هذه الكلية إلى عالم الوجود.

إنشاء كلية الشريعة:

تم تأسيس كلية الشريعة عام ١٩٥٥، وكان السباعي أول عميد لها إلى جانب قيامه بالتدريس في كلية الحقوق، واضطلاعه بكافة المسؤوليات الأخرى الملقاة على عاتقه كداعية وصاحب فكرة. وعمل السباعي منذ تسلمه عمادة الكلية بالتعاون مع إخوانه من الأساتذة الجامعيين، الذين يؤمنون بفكرته، على إرساء دعائم هذه الكلية على أمتن الأسس العلمية والفكرية والأساليب الحديثة، لتحقيق الهدف المنشود، في تخريج أجيال من العلماء الدعاة، والفقهاء والمدرسين، الجديرين بحمل لواء الفقه الإسلامي ونشره والتمكين له. .

يقول الأستاذ مصطفى الزرقاء عن دور السباعي في إنشاء الكلية: [٩]
«لما أنشئت كلية الشريعة في جامعة دمشق كان للأستاذ الدكتور مصطفى السباعي الجهد الأكبر في مساعي إنشائها، وفضل ميلادها الذي استكملت به جامعة دمشق ركناً كان ينقصها، وعهد بالإشراف عليها إلى

---

(٩) مصطفى الزرقا: مجلة حضارة الإسلام، الأعداد ٤، ٥، ٦، عام ١٩٦٤، ص٩.

لجنة أُلّفت بقانون وأعطيت سلطات مجلس الجامعة بالنسبة إلى بقية الكليات، وأعطيت علاوة على ذلك سلطة تعيين الأساتذة للتدريس في الكلية، وذلك خلال فترة انتقالية مدتها أربع سنوات . .

وكنا والأستاذ السباعي في هذه اللجنة، وكانت الكلية قد ضاقت بإنشائها في الجامعة صدور أناس كثيرين يحرصون على وضع العصي في عجلاتها، وزرع طريقها بالأشواك لعلها تتعثر فتسقط عاجزة عن المسير من الإعياء تحت ثقل الأعباء . . وكانت أمامها مشكلتان:

الأولى: مشكلة العمادة التي ينبغي أن تكون لأحد كبار الأساتذة في الكلية، ولم يكن في الكلية أساتذة بعد.

والثانية: مواجهة الضغط المتزايد على أعضاء لجنة الإشراف على الكلية من شتى الأصناف طمعاً في تعيين بمرتبة عليا رأساً من مراتب الأستاذية في الجامعة، ولاسيما ممن لا يحملون شهادات علمية تؤهلهم لهذا المقام الجامعي.

ولكن نقطة الارتكاز في كل هذه المقاومة الحكيمة يجب أن تبدأ من إيجاد أستاذ جامعي لائق يقبل أن يترك كليته ويأتي عميداً لكلية الشريعة، دون أن يتطلب قفزة من مرتبته إلى مرتبة أعلى . .

وكان الدكتور السباعي قد تم تعيينه قبل فترة قصيرة أستاذاً أصيلاً لمادة الأحوال الشخصية في كلية الحقوق. وإني لأعترف أنني والأستاذ الدكتور معروف الدواليبي من أساتذة الشريعة الإسلامية في كلية الحقوق لم نقبل أن نضحّي بمراكزنا في كلية الحقوق وننتقل إلى كلية الشريعة لاستلام عمادتها، لاعتبارات عديدة تجعل هذه التضحية ثقيلة علينا، ولكن الذي أقدم عليها غير مبال مهما كانت النتيجة عندما امتنعنا نحن وضحّى بمركزه

الجديد الثابت في كلية الحقوق إلى مركز في كلية الشريعة لم يكن من الممكن إذ ذاك أن يعرف مصيره إنما هو الأستاذ الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله. فهو الذي قبل أن ينتقل بمرتبته وراتبه دون أن يتطلب مرتبة أعلى وهو في أشد الحاجة إلى زيادة المرتبة، وقال: أريد أن أضرب المثل بنفسي حتى لا يفكر بالمجيء إلى هذه الكلية، إلا من يريد منفعتها لا منفعة نفسه، وأن أجعل من تضحيتي هذه حاجزاً في وجه من يريدون أن يقفزوا إليها من أجل المراتب التي لا تتيسر لهم في سواها. . وهكذا تسلم السباعي عمادة الكلية في المرحلة العصيبة، فسار بها مع اللجنة يشق لها الطريق في خضم الأمواج والأعاصير، بمهارة الربان الخبير، والقائد الشجاع المؤمن المخلص الذي يبتغي رضى الله قبل هواه، ويريد بناء منزلته عنده قبل مرتبته في الجامعة. .

وقد وهب الكلية في تلك المرحلة من روحه وحيويته وعلمه وتوجيهه أثراً لا ينفذ، يتوارثه من يتعاقبون عليها أساتذة وطلاباً، كما كان له فيها تأسيس مشروع موسوعة الفقه الإسلامي الذي تفرع من كلية الشريعة أيام عمادته وكان رئيس لجنة الموسوعة زمناً لا ينسى فيه نشاطه وجهوده الكبرى».

وكان السباعي يرى أن مناهج كلية الشريعة لا يجوز أن تقتصر على تلقين العلوم الجافة، وأن غاية الكلية ليست تخريج العلماء والفقهاء فحسب، وإنما كان يريد أن يكون خريجو الشريعة علماء ودعاة. .

والدعوة فن وروح، وإذا كان العلم يصنع العلماء، فإن التربية والتوجيه يصنعان الدعاة، ولذلك عني رحمه الله، بمناهج التربية والتوجيه في الكلية، فبالإضافة إلى الروح التوجيهية التي كان يحرص على بثها في

كافة المناهج العلمية، فقد عمل على توجيه الطلاب توجيهاً مباشراً، فأحدث درساً أسبوعياً سماه «قاعة البحث» وتولى بنفسه إدارة هذه القاعة، وإلقاء محاضراتها التوجيهية، وكان حريصاً على عدم الانقطاع عن قاعة البحث لأي عذر أو سبب ولو كان الألم الشديد والآلام المبرحة.

وكان إخوانه وزملاؤه يعجبون من همته وحيويته، ، وإخلاصه واندفاعه لأداء الواجب، رغم ما يعانيه من الآلام التي تنوء بها الجبال الراسيات.. وكان هؤلاء يرجونه بإلحاح أن لا يُحمّل نفسه ما لا تطيق ويحاولون ثنيه عن عزمه إشفاقاً عليه، لما يعلمونه من شدة الآلام التي لم تكن تفارقه لحظة واحدة في مرضه الأخير، ونظراً لما كانت هذه المحاضرات تكلفه من جهد وتعب وإرهاق لاسيما في أيام الشتاء الباردة. ولكنه رحمه الله لم يكن يصغي لذلك وكان يقول: «خير لي أن أموت وأنا أقوم بواجبي نحو الله، من أن أموت على فراشي، فالآجال بيد الله، وإن ألمي من حرمان الطلاب من دروس التوجيه أشد وأقسى من آلامي الجسدية، وحسبي الله وعليه الاتكال»[١٠].

أبرز صفاته القيادية:

كان السباعي يتمتع بصفات قيادية قد لا تجد مثلها حتى في البارزين من الرجال.. بل كانت قيادة الرجال مجتمعة في شخص السباعي.. لذلك سلّمت له كل القيادات الإسلامية وغير الإسلامية.. فعندما رجع من الأزهر بعد مناقشة رسالة الدكتوراة، خرجت دمشق والمحافظات بأسرها لاستقباله[١١].

---

(١٠) عبدالعزيز الحاج مصطفى: كتاب «مصطفى السباعي رجل فكر»، ص٢٥.
(١١) مقابلة مع السيد عيد البغا (أبو سليم) في ١٩٩٣/١١/١٧.

وكان السباعي يتصل بكل العاملين للإسلام داخل البلاد وخارجها، وكان كريماً لا يخلو بيته من الضيوف على مرّ الأيام. . كان حرصه على الدعوة ليس له نظير، وكان يسبق رأيه رأي إخوانه[١٢]، كان يتفاعل مع الدعوة ويتحرّق لأي شيء يمس الدعوة أو الإسلام، كان عنده دأب في متابعة القضايا ويحب سرعة الإنجاز. . كان مع إخوانه مثال التواضع، ومع من يحاول أن يمس الإخوان ينقض عليه مثل الصقر[١٣]. . كان يتتبع أحوال من يهمه أمرهم في المجتمع، ويسأل كل واحد منهم عن الأمور والمشاكل التي تهمهم. . وهذه براعة قيادية[١٤].

ومن صفاته القيادية البارزة:

● حبّ العلم والقدرة في الخطابة:

كان السباعي عالماً أديباً وخطيباً مفوهاً. . يحب العلم ويتمتع بأخلاق العالم الواعي الذي لا يُملّ له حديث ولو تحدّث أياماً، وكان مجلسه محبّباً فيه العلم والتوجيه والدعابة. . يقول السيد «أبو سليم»[١٥]: «كان السباعي خطيباً من الطراز الأول الفريد النفيس، ولا أعلم أحداً يوازيه في هذا المجال. . وكانت له قدرة عجيبة على القراءة والمطالعة والبحث، كان يقرأ في كل العلوم والاتجاهات. جاءني في أحد الأيام واختار مجموعة كتب وأخذها معه إلى البيت، وفي اليوم التالي أحضر ثلاثة منها ليبدلها لأنه وجد فيها صفحات بيضاء، ولما فتحتها وجدت تأشيرات بالقلم على كثير من الصفحات، وعلمت أنه قرأ جميع الكتب في تلك الليلة. .

---

(١٢) مقابلة مع الدكتور حسن هويدي في ١٩٩٣/١١/٣٠.

(١٣) مقابلة مع الأستاذ عادل كنعان في ١٩٩٣/١٢/٢٠.

(١٤) مقابلة مع السيد «أبو سليم» في ١٩٩٣/١١/١٧.

(١٥) مقابلة مع السيد «أبو سليم» في ١٩٩٣/١١/١٧.

وكانت بديهة الكتابة والقدرة عليها عنده عالية وفي كل المجالات. . فعندما أصدرنا جريدة المنار والشهاب في دمشق، كانت أحياناً تبقى عدة زوايا لم يكتب فيها أحد، فنتصل به ونقول له إن الزاوية الاقتصادية مثلاً أو غيرها لم تكتب، فيكتب لنا المقالات بسرعة فنملأ بها جميع الفراغات. . كما أن قدرته على الحديث كانت أيضاً عالية، حتى أن الصحفيين كانوا يقولون عن المجلس النيابي أن النائب الوحيد الذي لم نتمكن من كتابة كل ما قاله هو السباعي».

ويقول الدكتور محمد أمير العرقسوسي(١٦): «كان السباعي خطيباً ممتازاً. . ومع أن الدكتور عبدالرحمن الشهبندر كان خطيب دمشق الأول، إلا أن السباعي فاقه لأنه كان بحديثه يأسر القلوب ويهز المشاعر. . وكان له جلد ومقدرة على القراءة، وكنا نسهر الليالي بقراءة بعض الكتب الدينية في التراث الإسلامي، ثم نصلي الفجر، ونتناول طعام الفطور، ثم يذهب كل منا بعد ذلك إلى عمله. . وكانت مجالسه رائعة يتعلم منها الإنسان الشيء الكثير. . إلا أنه كان أحياناً حادّ المزاج، ولكنه لم يكن يقصد الإساءة لأحد».

أما الدكتور حسن هويدي فيقول عن السباعي الخطيب(١٧): كان أطلق الخطباء لساناً وأفصحهم خطابة. . وفي حفل التأبين الذي أقامته له جامعة دمشق بعد وفاته، كانت كلمة الدكتور محمد الفاضل عميد كلية الحقوق أبلغ كلمة ومع هذا فقد التفت إلى صورة السباعي وقال: «وأنت ميّت أبلغ مني وأنا حيّ».

---

(١٦) مقابلة بين الأستاذ رضوان دعبول والدكتور محمد أمير العرقسوسي في ١٩٩٣/١١/١٠.

(١٧) مقابلة مع الدكتور حسن هويدي في ١٩٩٣/١١/٣٠.

● **الشجاعة الجرأة والإقدام:**

كان السباعي ذا هيبة . . شجاعاً جريئاً في قول الحق . . وكانت هذه السّمة بارزة في شخصيته تجاه الأعداء والظالمين . . فكان أبيّاً شجاعاً عزيز النفس، لم يحن هامته طول حياته إلا لخالقه العزيز الجبار، ولم يطأطىء رأسه لطاغية ولا ظالم.

إن جرأة السباعي في الحق وثباته عليه لأمر من الشهرة والذيوع بحيث يكاد يكون طابعه المميز وخلقه الأصيل، وإن له في ذلك لمواقف ومواقف، مجاهداً في الساحات العامة، ونائباً في المجلس النيابي، ومكافحاً للاستعمار، ومنافحاً عن الأمة وتشريعها وحقوقها وكرامتها . .

وقد أدّى به ذلك إلى النفي والسجن والإبعاد منذ كان طالباً في الأزهر الشريف إلى أن أصبح علماً من أعلام السياسة والجهاد، ولم يهن له عزم، ولا لانت له قناة، وما زاده عتوّ الباطل وأهله إلا صلابة في الحق ونصره، ولا تغيرت طبيعة نفسه المرحة المتفتحة، فما كان يلمس منه في المنفى والمعتقل تجهم نفس أو انقطاع أمل أو فتور في عزمه.

ففي عهد أديب الشيشكلي أواخر عام ١٩٥٢، تعرض السباعي لمضايقة السلطة الحاكمة التي فرضت عليه رقابة مزعجة تحصي عليه حركاته وسكناته . . ولم يكتف الشيشكلي بهذه المضايقات ولكن اشتط في ذلك وطلب من أساتذة الجامعة وكبار الموظفين أداء قسم الولاء لعهده والدخول في الحركة التي أسسها باسم «حركة التحرير»، ولكن السباعي الذي تعشق الحرية وعاش يدافع عنها بلا هوادة رفض الانصياع للأوامر وأبى أداء القسم لعهد غير شرعي، فغضب الشيشكلي وأصدر مرسوماً بتسريحه من الجامعة، وأبعده عن البلاد، فاختار لبنان وبقي فيها حتى أواخر عهد الشيشكلي.

ويصف الدكتور حسن هويدي موقفاً من مواقف الجرأة للدكتور السباعي فيقول[18]:

«وأذكر مرة، حينما أسّس كلية الشريعة، وقد أوجس من أكبر المسؤولين خيفة، وأحسّ أن في الأمر ريبة، بعد الوعد القاطع، والعهد المبرم، فثار ثورة الأسد الهصور، وغضب لله غضبة مَنْ لا يخشى لومة لائم.. واندفع في تلك الثورة العارمة إلى حيث يبغي مجاهداً مصرّاً، فلم يرجع إلا بالنصر والظفر، وأسّست كلية الشريعة، وأعظم به من نصر وظفر، وخير باق ما بقي الدهر إن شاء الله..

هكذا تكون ثورة الرجال قوّة وإخلاصاً، ونفعاً عامّاً، وإيثاراً وبعد نظر، وليست ثورة من أجل المطامع أو الشهوات. إنها ثورة الرجال وتضحيتهم بالنفس والمال، في سبيل سعادة الناس.. إنها هي التي تخرج كنوز النفس البشرية، فتجعل منها المآثر والعبر، ومحطّ النظر لجميع البشر».

● **حب الجهاد:**

نشأ السباعي على حب الجهاد، وكان يرى الوطن العربي وطناً واحداً، والعالم الإسلامي أمة واحدة، وعليه أن يحارب الاستعمار أينما وجد.. ومنذ صغره بدأ بمقاومة الاحتلال الفرنسي لبلاده..

ومنذ برزت مشكلة فلسطين أخذ السباعي يوليها اهتماماً كبيراً، فكان يعقد الندوات، ويلقي الخطب والمحاضرات، وينبّه الشعب السوري إلى الخطر الذي يحدق بالأمة الإسلامية.. وفي عام ١٩٤٨ أخذ يجوب المدن والقرى ويحض الشعب على مناصرة المجاهدين.. ولم يقف عند

---

(١٨) عبدالعزيز الحاج مصطفى: كتاب «مصطفى السباعي رجل فكر..»، ص١١.

هذا الحد، وإنما قاد الشباب إلى القدس للدفاع عنها، وكان في مقدمتهم في المعارك..

يقول الأستاذ إميل الغوري واصفاً مشاركة الأستاذ السباعي في إحدى المعارك[١٩]: «وقبيل خوض المعركة الخطيرة، حاولنا إبقاء الشيخ مصطفى السباعي في مقر القيادة، وهو بعيد نسبياً عن أرض المعركة، كما سعيت شخصياً (للاحتيال) على الشيخ مصطفى وإقناعه بالبقاء في القيادة للقيام بأعمال خطيرة مهمة.. ولكنه أبى ورفض وأصرّ على خوض غمار المعركة، مهما كلفه الأمر، وقال إنه لم يحضر من دمشق إلا بغية الاستشهاد في سبيل الله والوطن.

ولما لم نستطع ثني الشيخ مصطفى عن عزمه، وافقناه على ما يريد، واخترنا مركزاً يشغله وأترابه، ولكنه لم يقبل ذلك، وصمم أن يشترك بنفسه في الطليعة. فكان له ما أراد، فخاض الشيخ مصطفى ورفاقه المعركة ببطولة عظيمة، إلى جانب إخوانهم الفلسطينيين، وانتهت المعركة بنصر مؤزر للعرب.

وبعد انتهاء المعركة، رجونا الشيخ مصطفى أن يستريح قليلاً فرفض، فعرضت عليه الانتقال إلى القدس للمساهمة في الدفاع عنها، فقال لي: إني لا أقاتل من خلف أسوار.

وانتقل الشيخ مصطفى ورفاقه، بعد معركة المستعمرات في لواء القدس، وانضم إلى قوات الجهاد المقدس في المنطقة الوسطى. وظل السباعي يجاهد في فلسطين حتى وقعت كارثة ١٥ أيار ١٩٤٨، فاضطر ورفاقه إلى الانسحاب من فلسطين تنفيذاً لأوامر القيادات العسكرية

---

(١٩) مجلة حضارة الإسلام، الأعداد ٤، ٥، ٦، عام ١٩٦٤، ص١٠٣.

العربية النظامية وتعليماتها».

● **الحلم والسماحة:**

كان رحمه الله حليماً سمحاً في تعامله مع الناس، وكان يتحمل الأذى حتى من بعض إخوانه، فيرد عليهم بكلام يزينه الحلم وتصحبه السماحة..

يروي الشيخ محمد المجذوب موقف السباعي من فتنة وقعت في صفوف الجماعة بدمشق فيقول[٢٠]:

«إن أسوأ ما لقيه السباعي إنما جاءه عن طريق شباب كانوا أحق الناس ببرّه وحبه، وكان ذلك يوم عاد إلى سورية ليستأنف نشاطه في خدمة الحق، فإذا هو يواجه سلسلة من التدابير حيكت في غيابه للتسلط على الجماعة! إنها محاولة انقلاب بدأت خفية وراء الستور، ثم ما لبثت أن خرجت إلى الملأ تواكبها وتؤرثها تحريشات الصحف المشبوهة، التي لم يعرف لها قط سابق اهتمام بقضايا الإسلام، إلا عند مهاجمة دعاته، والدعوة إلى عداته.

وأشهد.. لقد تحمل السّباعي من ظلم هذه الفئة ـ سامحها الله ـ ما تنوء به كواهل العصبة أولي القوة. وحسبي أن أذكر مشهداً واحداً من هذه المأساة، ولولا خشية الإساءة لمن لا نحب إيذاءهم من إخواننا الأحياء، لوجدت متسعاً لعرض الكثير من هذه المشاهد، التي لا أشك أنها كانت من العوامل التي انتهت به إلى الشلل.

حدث ذلك في دمشق، وفي اجتماع ضم طائفة من قادة الجماعة، بينهم من مصر الأستاذين صالح أبو رقيق وحسن العشماوي، ومن سورية

---

(٢٠) محمد المجذوب: علماء ومفكرون عرفتهم، ص٣٨٨.

الأساتـذة عصـام العطار وعبدالكريم عثمان، وحضر الاجتماع الأستاذ (فلان) عن الفئة (الأخرى).

وطرحت الأفكار بصراحة، وفسح مجال القول لمن شاء، ووجد الأخ (فلان) الفرصة مواتية لتفجير ما حمل من ألغام، فإذا هو يقول في لهجة مضغوطة لم يستطع أن يلطفها: «هناك أسئلة تطلق ولا نعرف بماذا نجيب عليها..

أولاً.. مصروف الأستاذ السباعي في أثناء وجوده في لبنان طوال زمن النفي.. من أين أتى به؟ ثم هناك مبلغ من المال كان قد قبضه من الأستاذ (أمين..) قبل سفره إلى فرنسا لنوال الدكتوراه.. كيف تصرف به؟ وبأي حق؟».

ووجمت الألسن، وغامت الوجوه تحت غشاء الدهشة المرة، إذ لم يكن أحد منا يتوقع أن تصل الخصومة في القوم إلى حد اتهام الرجل الذي وهب كل شيء في سبيل الدعوة.

ولكن وجهاً واحداً لم تزده هذه الجرأة إلا إشراقاً وابتساماً، هو وجه السبـاعي، الـذي ظل محتفـظاً بهدوئه واطمئنانه المألوف في مثل هذه المجالس الخاصة، كأن شيئاً مؤسفاً لم يحدث! وكان عليه أن يجيب، فقال: «أما مصاريف المنفى فيخجلني أن أضطر لكشف الستر عن وضع لا يخص أحداً سواي، وهو أنني كنت اقترضها من ابن عمي عبدالسلام السباعي في بيروت، حتى بلغت ديوني بسبب ذلك قرابة العشرين ألف ليرة. ولقد كان في وسعي أن أنجو من هذه الديون لو قبلت معونة أخ واحد من الكويت.. لقد بعث إليّ بالسيد رفعة الأيتوني يقول: «إنك موقوف عن العمل، ولا مورد لك ولأسرتك، وأن أخاك هذا كلفني أن أقدم إليك راتباً

شهرياً ريثما تنكشف محنتك».

ولكنني رجوت من السيد الأيتوني أن يرفع إلى الأخ الكويتي شكري على مروءته، ويؤكد له أنني في غير حاجة إلى شيء من ذلك، فألح وطلب إليّ أن أعد ذلك من باب الاقتراض فقلت: إنني أقترض من ابن عمي، ولا أحب أن أكون مديناً لغيره.

وهنا طلب الأستاذ عبدالكريم عثمان الإذن بالكلام والتفت إلى الأستاذ (فلان) يقول: أتذكر يوم كذا.. وكنا نتحدث عن الأستاذ السباعي فقلت لي: حقاً إن الرجل مظلوم.. وضربت لي مثلاً على ذلك بأنه قد تلقى من الدكتور (أمين..) هبة باسم الدعوة فدفعها إليك بدوره لتنفقها على مصالح الجماعة، وقد فعلت. ثم قلت: ومع ذلك فإن بعض الألسنة غير النظيفة تريد أن تتحرك بالباطل لتتهم الرجل بأنه استأثر بالهبة لنفسه!

وأطرق (فلان).. وقد تذكر كل شيء، ولكنه لم ينطق بحرف.. ثم انفض الاجتماع لصلاة الجمعة، ففارقنا إلى غير رجعة!».

● **الصبر والتحمل:**

في السنوات الأخيرة من حياته هجم عليه المرض واستمر ثماني سنوات حمل خلالها من الآلام ما لا يقدر على حمله رجال من أولي العزم إلا من كان له صبر الأنبياء.

وضرب الأستاذ السباعي خلال مراحل مرضه أروع آيات الصبر الجميل مع ما فيه من الرضا والتسليم لقضاء الله.. فكان صبره آية كبرى من آيات إيمانه، ومظهراً متفرداً من مظاهر شخصيته، فقد كان رائع الصبر والرضى بحكم الله جل وعلا، يقبل أمر الله ولا يعترض، مقراً بوجود حكمة لله ولو كانت خافية عليه، وكم كان يرجع إلى التسليم والدعاء عن إيمان

عميق غير تارك أي سبب من الأسباب يستطيع الأخذ به.

كان هذا شأنه في شبابه، وشدة بأسه وتوقد عزيمته، حتى إذا نزل به فجأة مرضه العضال، وطوقته الآلام المبرحة من كل جانب وهو ما يزال في عنفوان الرجولة.. تقبّل حكم الله بإيمان راسخ وشجاعة فائقة، ولم ين عن الحمد والتسبيح والاستغفار لله، كما لم يغادر وسيلة من وسائل الطب الحديث وغيره إلا أخذ بها وسافر لها، تاركاً مآل الأمر إلى الله تعالى، داعياً إياه أن يكشف عنه البلاء، ويلهمه مزيداً من الصبر والشكر على الابتلاء.

وكانت حياته في المرحلة الأخيرة المريرة من عمره قدوة حسنة مثلى، وتعبيراً نموذجياً عن معنى الصبر في الإسلام، فإنه رحمه الله لم ينقطع خلال مرضه الطويل وعلاجه الدؤوب وآلامه الملحة عن ممارسة ذاته ورجولته والنهوض بواجباته كإنسان صاحب دعوة حق وداعية مؤمن مسلم.

يقول الدكتور حسن هويدي[21]: «ولقد رأيته بعد مرضه، يتكىء على العصا، غادياً إلى الجامعة ورائحاً، في الوقت الذي قعد فيه الأقوياء وخمل فيه الأصحاء، ويا ربّ مريض مشلول، أشدّ من سيف مسلول، وما كان استمراره في الجهاد رحمه الله على الرغم من شلله وإصابة قلبه، وضغط دمه، إلا دلالة صادقة، وحجة ساطعة، على أن الرجل سجيته الجهاد، وطبيعته الكفاح، وغريزته التضحية، وفطرته الشجاعة والفداء، فأنّى يجد الرياء إلى نفسه سبيلاً، أو الفتور إلى بأسه مسلكاً، أو التردد إلى عزيمته منفذاً، فسبحان من منحه وأعطاه، وتفضل عليه وأرضاه!

ولهذه الفطرة السامية النقية استمر أكرمه الله في جهاده، بقلمه ولسانه، وروحه وجثمانه، في حالتي صحته ومرضه، حتى وافته المنية وهو

---

(٢١) عبدالعزيز الحاج مصطفى: كتاب مصطفى السباعي رجل فكر، ص١٢.

عاكف على الكتاب يدافع عن السّنة العليّة، فأعظم به من جهاد مستمر إلى القبر، متصل إلى الآخرة، ومرتفع إلى السماء».

من سماته وصفاته:

كان السباعي من رواد الحركة الإسلامية العالمية، ومن كبار المجاهدين.. كان فارساً للسيف والقلم والمنبر والمحراب.. كان فقيهاً متبصراً، وعالماً واعياً بصيراً بأحوال أمّته.. كان أبيّ النفس، كبير القلب، وكانت روحه أعظم من جسده، فلم يستطع جسده أن يوفي متطلبات روحه[٢٢].. وكان رحمه الله يتصف بالكثير من صفات الرجولة.. ومن هذه الصفات:

● الأخوّة والبذل:

السباعي رجل فذ، وإنسان مفضال، وشخصية لامعة جامعة.. حباه الله موهبة كريمة، وفطرة سليمة، فغذّاها بالعلم وزكاها بالفضائل والمناقب..

كان رحمه الله يتمتع بسجايا الخير وأخلاق الصفوة ومواقف الرجولة.. وكان صاحب مواقف نبيلة مع إخوانه.. كان أريحياً كريماً، يتحرى النهوض بواجب الأخوّة والتكريم، حتى أنه ليتصدى لاستضافة فضلاء الرجال الذين يؤمون البلاد، شاعراً بأن ذلك حق عليه، ما يسوغ له التخلي عنه ولو كان في ضيق، من أوضاعه وأعماله ووجباته العامة والخاصة، وهذا من أدب الإسلام ومن المتابعة لخلق الرسول عليه الصلاة والسلام في سيرته الندية العطرة..

وكان السباعي يهتبل هذه المناسبات ليربط فيها بين ضيوفه وزوّاره

---

(٢٢) الدكتور حسن هويدي.. مقابلة معه في ١٩٩٣/١١/٣٠.

وبين الدعوة الإسلامية ورجالها في إطار من المودة السمحة. . فكان منزله في مثل هذه المناسبات ـ وما أكثرها ـ مجتمعاً أدبياً وملتقى أخوياً. .

هذا فضلاً عن إقبال نفسه وسخاء طبعه في نجدة إخوانه والإسهام في كل أعمال الخير الخاصة والعامة بأوفر نصيب يقدر عليه.

يقول الشيخ عبدالفتاح أبو غدة: «أذكر أنه توفي بعض ذوي الفضل والعلم على حال ضيقه اقتضت رفد أسرته، فذاكرته في ذلك فكانت يده أجود الأيادي وأكرمها[٢٣]».

وكان رحمه الله يؤاخي الإنسان فيكون وفيّاً لأخوّته، محسناً الظن به، يذود عنه قالة السوء، ويحتفظ له بمنزلة الصادقين، ويلتمس لهفواته الأعذار ما دام يجد إلى ذلك سبيلاً. بعيداً عن التملق والنفاق والمجاملة بالباطل.

وكان لا يبخل برأيه السديد على من استشاره، فيخلص له النصيحة، ويمحضه الود، ويعطيه من وقته أغلاه، أداء لحق هذا الإسلام الذي منحه الله فهمه والنهوض به والدعوة إليه.

● **القدوة الحسنة**: كان السباعي مناراً هادياً، وقدوة للأجيال في جوانب كثيرة ومجالات متعددة. . كان قدوة في ميدان الدعوة إلى الإسلام، وقدوة في ميدان الجهاد والكفاح الوطني، وقدوة في ميدان العلم والسياسة، والفكر والصحافة، والخدمة الاجتماعية. . بل وكان قدوة في كل موقف من مواقف حياته. .

كان طاقة جبارة من النشاط المتوقد الذي لا يعرف الملل ولا الفتور. .

---

(٢٣) مجلة حضارة الإسلام، الأعداد ٤، ٥، ٦، السنة الخامسة عام ١٩٦٤، ص١٧٢.

فليس غريباً أن يخوض الميادين المختلفة، ويكافح في جهات متعددة، ثم ينجح ويتفوق في كل هذه الميادين[٢٤].

يقول الدكتور حسن هويدي، بعد وفاة الدكتور السباعي بسنتين: «إن في الحياة عبراً لا تنسى، ومآثر لا تبلى، ومثلاً حية ناطقة على مرّ الزمن ترسم الطريق للشاردين، وتنير السبيل للسالكين، فتقوي العزم، وتذكي الحزم، وتحدو الركب. وإن كانت هذه العبر تتجلى تاريخياً في حياة الأمم، فإنها تتجلى بارزة في الأفراد من الرجال، الذين تتجسّم فيهم الفضيلة، وتنطق حياتهم بالمكارم، حتى لكأن أحدهم فضيلة تتكلم أو شجاعة تتجسم، أو بلاغة ينبي عنها اللوح والقلم..

وإني لا أشهد بهذا انفعالاً لعاطفة، ولا مجاملة للباطل زائفة، ولكنها شهادة حق يمليها الواقع ويحس بها الضمير. فلقد رأيتنا أنا وصحبي لا نزال نحيا مع أبي حسان رحمه الله، في صدقه وشجاعته، في فدائه وتضحيته، في بلاغته وخطابته، في شعره ونثره، في علمه وتقواه، في هدفه ومرماه، في صبره ومضائه، في محنته وبلائه وقد مضى على وفاته ما يقارب السنتين.

نعم إن الذي يحيا هذه الحياة الفاضلة، ويحقق هذه المآثر العظيمة، ويضربها للناس مثلاً واضحاً، لا لبس فيه ولا غموض يشهد به العدو كما يشهد به الصديق، لا يمكن أن ينسى، أو تزول صورته الجميلة عن العين أو القلب، ولو مضى على وفاته مئات السنين بدل السنة أو السنتين[٢٥]».

● **عذوبة النفس وشفافية الذوق**: كان طيب الله ثراه عذب النفس،

---

(٢٤) حسني جرار: القدوة الصالحة، ص٢٠٦.

(٢٥) عبدالعزيز الحاج مصطفى: كتاب مصطفى السباعي رجل فكر، ص٩.

رقيق الحاشية، مرهف الذوق والشعور، يستجيب للدعابة ويجيدها، ولا يبذلها إلا في موطنها، وكم كان يستعين بذلك في محاضراته ودروسه عندما يتوقع من مستمعيه أن وطأة الجد كادت تثقل عليهم، فتكون شواهده الطريفة بما فيها من ملاءمة للمناسبة درساً جديداً أبلغ من الدروس والمحاضرة، وأنفذ في نفوس السامعين إلى مقاصده ومراميه العالية التي يتحدث عنها، حتى إذا تابع درسه وإلقاءه بعد ذلك عاد مستمعوه إلى متابعة سماعه بهمة جديدة وذهن متفتح ونشاط كبير.

وكان رحمه الله صافي النفس وفيّاً، محبّب العشرة، شهم الإخاء، سريع النجدة كريمها، تتأتى معه الطرف والنوادر الجميلة فيحدّث بها صحبه وهو يضحك ببراءة نقية قائلاً: أضيفوها إلى نوادر الحمصيين.

وكانت له مسامرات ومحاورات تفيض ذوقاً وعذوبة نفس مع صديقه الصفي وأخيه الكريم الشيخ محمد الحامد، وكثيراً ما كان يحلي بها مجالس خلانه وإخوانه.

وإن الإنسان قد يعجب - ولا عجب - حين يقرن بين وقار النابغة السباعي في مواطن الجد، ومخاشنته لأعداء الله والأمة، وانقباض نفسه عن المنافقين والنفعيين، وبين شفافية روحه، وانطلاق جنانه، وتلطف لسانه في معاشرة أحبائه وإخوانه. ولكن لا عجب فهو الفهم للإسلام والعمل به على بصيرة[٢٦].

● **إلتزام الحق**: كان السباعي يدعو إلى الحق ويدافع عنه وينصره، وإذا صادف أن اجتهد في أمر فكان له فيه رأي ولسواه رأي ثم رجع في

---

(٢٦) عبدالفتاح أبو غدة: مجلة حضارة الإسلام، الأعداد ٤، ٥، ٦، عام ١٩٦٤، ص١٧٤.

ذلك ونوقش، بسط حجته، ودافع عن وجهة نظره بروح المنصف المتحري الباحث عن الحق، حتى إذا تبينت له فيما كان يراه ويقوله وجهة جديدة محص فيها الرأي، وكانت نتيجة ذلك التزامه بالحق الصراح والمعالنة به، لا يهمه في أي جانب كان، دون تعصب لرأيه أو حرص على انتصار وجهة نظره، بل إنه ليشدّ، بقوة على الرأي الجديد الحق، مدافعاً عنه أشد من دفاعه عن رأيه الذي كان يراه، لأنه تبدّت له معالم الحق فيه أكثر..

وقد كان يُشهد بعض خلصائه وإخوانه - في كثير من المناسبات - على ما رجع عنه، كأمر «اللحية» فقد انتهى إلى إطلاقها، وأشهر أنها من سنن الإسلام وشعائره الكريمة الغالية، وكأمر «التأميم» الذي كان له فيه رأي ثم تغير رأيه فيه[٢٧].

● **عزّة النفس:**

كان السباعي رحمه الله عزيز النفس، ولا يقبل معونة من أحد.. لا من إخوانه ولا من غيرهم..

بعد إصابته بالشلل عرض عليه إخوانه مبلغاً شهرياً من المال فرفض، مع أنه كان في أشد الحاجة إليه.. فكان يستدين عند الحاجة ولا يأخذ من أحد شيئاً.. وكان دائماً يقول: أنا والحمد لله أقوم بالتدريس وتأليف الكتب وعندي ما يكفيني..

وكان رحمه الله حتى الخدمات الشخصية من شباب الدعوة كان لا يقبلها، فكان يخدم نفسه ويقضي حاجاته بنفسه.. وإذا خدمه أحد كان يشعر بخجل شديد[٢٨].

---

(٢٧) مجلة حضارة الإسلام، الأعداد ٤، ٥، ٦، عام ١٩٦٤، ص١٧٣.

(٢٨) عادل كنعان.. مقابلة معه في ١٩٩٣/١٢/٢٠.

● **تأثيره في إخوانه وشدة حبهم له:**

قابلت عدداً كبيراً من الإخـوة السـوريين ومن ذوي الاتجـاهـات المختلفة، لاستكمل الكتابة عن الأستاذ السباعي.. فوجدت تأثير الأستاذ ظاهـراً فيهم جميعاً، ورأيت إجماعاً على حب الرجل والتأثّر به.. ومن الذين قابلتهم السيد موفق الشاويش (أبو زيد)، فقررت أن أدوّن مقابلته كنموذج لهذا الحب والتقدير. واستمعت لأبي زيد وهو يروي الكثير مما يحفـظه من عبـارات السباعي وحكمه، والتي مرّ عليها أكثر من أربعين عاماً، كقوله: «أذلّت الشهوة أعناق الرجال، وأذلّ الدولار مَن كنّا نعدّهم من الأبطال».. ثم قال: لا يوجد عندي أعز من السباعي رحمه الله.. كنت دائمـاً أمشي خلفـه في المـظاهـرات، وأتمنى لو أن تصيبني ألف رصاصة ولا تصيبه رصاصة واحدة[٢٩].

● **سرعة البديهة والنكتة الحاضرة:**

كان السبـاعي حاضـر البـديهـة سريع النكتـة.. ونكاته الحمصية مشهورة بين معارفه وإخوانه.. فمرة كان يدرّس في كلية الحقوق بجامعة دمشق، فقال: «من كان بسن الزواج ولم يتزوج فهو أخ للشياطين» وذلك قبل أن يتزوج، فسأله أحد الطلاب: هل أنتم متزوجون؟ فقال: لا.. أنا أخوكم[٣٠].

---

(٢٩) موفق الشاويش.. مقابلة معه في ١٩٩٤/١/٨.

(٣٠) الدكتور محمد أمير العرقسوسي.. مقابلة معه أجراها الأستاذ رضوان دعبول في ١٩٩٣/١١/١٠.

الفصل الثاني

السّباعي مؤسس حركة

- تقديم
- تأسيس الحركة الإسلامية
- أهداف الحركة الإسلامية
- نشاط الحركة الإسلامية :
  - ● ميدان الإصلاح الفكري والثقافي
  - ● ميدان الإصلاح الاجتماعي
  - ● ميدان الإصلاح السياسي
- علاقة الحركة بالحركات الدينية الأخرى
- علاقة الحركة بالاحزاب السياسية
- النشاط الحركي للسباعي خارج سورية
- الانشقاق
- خليفة السباعي ونوّابه

تقديم:

السباعي علَمٌ من أعلام الأمة الإسلامية في العصر الحديث، وأستاذ من أساتذة الحركة الإسلامية الواعية، وداعية من صفوة الدعاة والمرشدين والعلماء، الذين تعالوا على حطام الدنيا، وارتفعوا فوق ترابها وشهواتها.. داعية آمن بالإسلام ديناً ودولة، مصحفاً وسيفاً، منهاجاً وطريقاً وسبيلاً للحياة.. ووقف نفسه وروحه وقلمه وعقله وحياته وعمره في سبيل دعوة الإسلام، والسير على طريق الرسول القائد محمد ﷺ.

ولم يكن قبل السباعي في بلاد الشام في العصر الحديث حتى مطلع القرن العشرين تيار إسلامي حركي واضح المعالم، كما أنه لم يكن للإسلام دعاة وجنود من المثقفين الذين جمعوا إلى جانب الثقافة العصرية الحديثة، ثقافة إسلامية ناضجة، وإنما كانت هناك دعوات دينية وطرق صوفية وجمعيات تقتصر في دعوتها على بعض جوانب الإسلام، مكتفية بالدعوة إلى مكارم الأخلاق والتمسك بالعبادات دون اهتمام بالجوانب الأخرى مع الابتعاد عن معالجة مشكلات الجماهير والتحسس بها.. ولم تكن تخلو بعض هذه الدعوات والطرق من بدع وخرافات وضلالات مدخولة ومدسوسة على الدين، وهذا ما جعل الإسلام ومَنْ كان يحمل بعض رسالته، في عزلة عن الفئات المثقفة وعن جماهير الشعب ومشكلاته[1]..

---

(١) فتحي يكن: الموسوعة الحركية ـ المجلد اول، ص١٤٤.

ومن ناحية ثانية فقد بذل الاستعمار جهوداً كبيرة لإخماد الروح الإسلامية، التي كانت تحرك القوى الإسلامية ضده، وتدفعها للثورة عليه، كما بذل جهوداً أخرى استخدم فيها سائر إمكانياته، مدفوعاً بالحقد الصليبي الموروث، لتشويه حقائق الإسلام، بالدس والافتراء، وتضليل الأفهام والعقول، عن طريق تهوين شأن الإسلام وتراثه وأمجاده، في نظر الناشئة والدارسين، وتزيين الثقافة الغربية، والاخلاق والعادات الأوروبية، وإيهامهم أن الدين جمود ورجعية، وأنه لا سبيل للنهوض والانطلاق إلا بترك الدين واتباع الغرب وتقليده، في مختلف شؤون الحياة!!.. وقد فعلت هذه السياسة فعلها، فزادت في إبعاد الشباب المثقف عن الإسلام، وزادت من إحكام الحصار حوله، ليبقى في عزلة عن أبنائه[٢]..

وكان مما شجع هذا الاتجاه ظهور عدد من الكتاب والمثقفين العلمانيين، الذين تتلمذوا على الغرب وأفكاره، من أمثال الدكتور طه حسين وسلامة موسى وعلي عبدالرازق، وأخذوا ينفثون سمومهم في الصحف والكتب وغيرها من وسائل الإعلام في كثير من البلدان العربية.. وكانوا يركزون في كتاباتهم على مقولة، هي:

إذا أردنا النهوض ببلداننا العربية، فعلينا أن نأخذ الحضارة الغربية بكاملها، خيرها وشرها، حلوها ومرّها..

وأمام هذا الواقع من تقصير أبناء الإسلام، ومكائد الاستعمار وعملائه، كان لا بد من ظهور من يجدّد أمر هذا الدين، ويعمل على تحرير الأمة من سلطان الاستعمار، ويعيد للإسلام مجده، ويصل بينه

---

(٢) عبدالعزيز الحاج مصطفى: كتاب مصطفى السباعي رجل فكر، ص٢٩.

وبين أبنائه من جديد . .

وكـان الـدكتور السباعي رحمه الله من أوائل الذين حملوا العبء، ورفعـوا الـراية في بلاد الشـام، وجاهدوا لنصرة الإسلام . . فكان يشعر بحاجة الإسلام إلى جماعة تؤمن به إيماناً صادقاً واعياً يدفعها للتضحية في سبيله وتحقيق أهـدافـه في إقـامة ميزان الحق . . فبدأ يدعو الناس إلى الإسلام ويبصّرهم بحقائقه ويعرفهم بأهدافه وغاياته، وسرعان ما استجابت جماهير الشعب لدعوته والتفّت حوله، ولكن ظروف البلاد التي وضعته في خط الكفـاح الأول ضد الاستعمار وعملائه، وما لاقاه على أيديهم من اعتقال وسجن وملاحقة وإيذاء لم تدع له الفرصة الكافية لبناء الجماعة التي كان يشعـر بضـرورة وجـودها . . الجماعة القادرة على إيجاد التيار الإسـلامي القـوي الـذي يشق طريقـه في زحمـة التيارات الفكـرية والاجتمـاعية المتصـارعة، وتحقيق السبق والتفوق عليها . . فساهم في بداية الأمر في تأسيس وقيادة عدد من الجمعيات الإسلامية في حمص وفي غيرهـا، ومنهـا «الـرابطة الدينية بحمص، وشباب محمد ﷺ، والشبان المسلمون في دمشق» . . وظل يعمل للإسلام عن طريقها إلى أن سافر إلى مصـر عام ١٩٣٣ لمتـابعـة دراستـه العليا هنـاك، فاتصـل بقائد الدعوة الإسلامية الإمام حسن البنا، وكان قد سمع به من قبل وعرف جهاده في سبيل الإسلام . وكان الإمام البنا عليه رضوان الله قد فرغ من بناء جماعته التي استطاعت بقيادته الفذة أن توجد في مصر تياراً إسلامياً أثبت وجوده وأعاد لها وجهها الحقيقي المشرق[٣] .

ولقد أعجب السباعي بعمل الإمام الشهيد حسن البنا ورأى فيه بغيته

---

(٣) حسني جرار: القدوة الصالحة، ص٢٠٨ .

وطريقته، كما رأى أن ما كان ينشده ويفكر به، من تنظيم جماعة تنهض بعبء رسالة الإسلام، قد تحقق على يد الإمام البنا، فساهم خلال وجوده في مصر بدفع هذه الحركة، وتوسيع نشاطها، واستفاد من تجربتها، وأفادها من خبرته ونشاطه[٤] وقيل أن الإمام البنا قد رشّحه لخلافته وطلب منه البقاء في مصر لما لمس فيه من نشاط إسلامي وقدرة قيادية[٥].

تأسيس الحركة الإسلامية:

عاد السباعي من دراسته في مصر إلى سورية وهو ملتزم بحركة الإخوان المسلمين.. وبعد عودته اتصل بالجمعيات العاملة للإسلام في



الفقيد العظيم مع الامام الشهيد في مصر عند اللقاء الاول

---

(٤) عبدالعزيز الحاج مصطفى: كتاب مصطفى السباعي رجل فكر، ص٣٢.

(٥) عادل كنعان ـ مقابلة معه في ١٩٩٣/١٢/٢٠.

جميع المحافظات، وعمل على توحيدها في حركة واحدة باسم «جماعة الإخوان المسلمين» بتكليف من الإمام حسن البنا[٦]. .

وكانت هذه الجمعيات قد تم تأسيسها في أوائل الأربعينات أيام الاحتلال الفرنسي لسورية. . وهي:

● «جمعية الشبان المسلمين» في دمشق. . قام بتأسيسها الدكتور فايز المط، وصلاح الدين دعدوش، وصلاح الدين الشاش، وسعيد علواني وغيرهم. . وكان أول رئيس لها الدكتور فايز المط ثم الأستاذ محمد المبارك[٧].

● «دار الأرقم» في حلب. . قام بتأسيسها الشيخ عبدالوهاب التنجي، والشيخ عادل الدباس، وفريد الموقع. ثم انضم إليهم الشيخ عبدالقادر السبسبي وأصبح رئيساً لمركزها[٨].

● «جمعية الإخوان المسلمين» في حماة. . كان الإمام البنا قد أرسل رسالة إلى الشيخ محمود عثمان في حماة ودعاه إلى تكوين جمعية الإخوان المسلمين، وتم تشكيل الجمعية في أوائل الأربعينات، وكان الدكتور نورس عبدالرزاق رئيساً لها[٩].

● «الرابطة الدينية» في حمص. . أسسها العلماء وعلى رأسهم

---

(٦) عدنان الطباع. . مقابلة في ١٩٩٣/١١/٦.
وإسماعيل الكيلاني. . مقابلة في ١٩٩٣/١٢/٢٥.
(٧) د. فايز المط. . مقابلة في ١٩٩٣/١١/٩.
(٨) عادل كنعان. . مقابلة في ١٩٩٣/١٢/٢٠.
(٩) مصطفى الصيرفي. . مقابلة في ١٩٩٣/١٢/٢١.
ومحمد نعسان عرواني. . مقابلة في ١٩٩٣/١١/٣٠.

الشيخ محمود جنيد، ثم قام معظم هؤلاء العلماء بتكوين «شباب محمد» وعلى رأسهم الشيخ محمود جنيد والشيخ مصطفى السباعي. وقام العلماء أيضاً بتكوين «جمعية العلماء». ثم أسس الدكتور السباعي «جماعة الإخوان المسلمين» إلى جانب جمعية العلماء، وانضم إليها معظم الشباب المسلم، وكان يرأسها الشيخ أبو السعود عبدالسلام[١٠].

● «دار الأنصار» في دير الزور. كان رئيسها الدكتور عزالدين جواله، ثم الدكتور حسن هويدي[١١].

وقد تم الاتصال بين هذه الجمعيات في المدن السورية، وتم اختيار عنوان لها باسم «شباب محمد»[١٢] وصار المركز الرئيسي لها في دمشق.

وبعد عودة السباعي إلى سورية تم توجيه دعوة إلى جميع المراكز للوحدة، وتم أول لقاء لمندوبي المراكز في حلب عام ١٩٤٢، حضره الدكتور السباعي، وحضر من القاهرة الدكتور سعيد رمضان بتكليف من الإمام البنا. وبعد مداولات تقرر توحيد الجمعيات والمراكز باسم «جماعة الإخوان المسلمين». تلاه اجتماعات في حلب وفي دمشق.. وتقرر أن يكون رئيس مركز دمشق مراقباً عاماً للجماعة.. ولما تم توحيد المراكز كان رئيس مركز دمشق الأستاذ محمد المبارك فتنازل للدكتور مصطفى السباعي.. وأصبح السباعي أول مراقب عام للإخوان المسلمين في سورية عام ١٩٤٥[١٣]. وتم إنشاء أكثر من عشرين مركزاً وعشرين مؤسسة

---

(١٠) الشيخ محمد علي مشعل.. مقابلة في ١٩٩٤/١/٢٦.

(١١) الدكتور حسن هويدي.. مقابلة في ١٩٩٣/١١/٣٠.

(١٢) عادل كنعان.. مقابلة في ١٩٩٣/١١/٢١.

(١٣) الدكتور حسن هويدي.. مقابلة في ١٩٩٣/١١/٣٠.

في جميع المحافظات عام ١٩٤٦، وزاد عدد المتسبين للجماعة على مئة ألف في السنوات الأولى[١٤].

أما مراكز الدعوة في دمشق فكانت[١٥]:

● مركز السنجقدار.. افتتح عام ١٩٤٦ وكان أول مركز عام للجماعة بعد زوال الاستعمار الفرنسي.

● مركز باب الجابية.. كان مركزاً لجمعية الشبان المسلمين قبل أن تنخرط في جماعة الإخوان المسلمين، وصار مركزاً لفتوّة الإخوان وكان يتبع المركز العام.

● مركز الشهداء.. افتتح سنة ١٩٥٤ في طريق الصالحية.. وفي عام ١٩٥٧ تم نقل المركز إلى الروضة، وأغلق سنة ١٩٥٨ عندما قامت الوحدة بين مصر وسورية وقامت جميع الأحزاب بحل نفسها.

وبعد اختيار السباعي مراقباً عاماً تم عقد لقاءات (مؤتمرات) للجماعة في دمشق وحمص وحلب، وتم تأمين عمل للسباعي مديراً للمعهد العربي الإسلامي بدمشق[١٦].

وعمل السباعي على إخراج الحركة الإسلامية من نطاق العمل الشعبي العام إلى نطاق الحركة المنظمة، وقاد الجماعة قيادة الحكيم المقدام متجاوزاً بها أحلك الأيام وأشد العقبات، واستطاع هو وأخوانه أن يوجدوا في سورية تياراً إسلامياً واعياً استقطب خيرة الشباب المؤمن المثقف.. واستمر السباعي يمنح دعوته وجماعته من شبابه المتوقد

---

(١٤) د. فايز المط.. مقابلة في ١٩٩٣/١١/٩.

(١٥) عدنان الطباع.. مقابلة في ١٩٩٣/١١/٦.

(١٦) عادل كنعان.. مقابلة في ١٩٩٣/١٢/٢٠.

وحيويته النادرة وعبقريته الفذة وروحه القوية كل ذرة من جهده ووقته حتى سقط من الإرهاق الذي لو سلط على جبل كبير لصدعه. ولكن السباعي القائد لم يستسلم للمرض، ولم تفتر همته للآلام المضنية، فبقي يمد الجماعة ودعوتها بقوة معنوية من قلبه الكبير، وبتوجيه سديد رشيد من عقله الحكيم حتى آخر لحظة من حياته.

وإن أهم ما مكن السباعي من الانتقال بالحركة الإسلامية إلى مرحلة شعبية واسعة النطاق، هو قدرته الفائقة على التحسس بمشكلات الحياة الراهنة، فقد كان رحمه الله يعيش في حاضرة بعقله ولبّه وبقلبه وعاطفته، ولذلك استطاع أن يجعل علمه وثقافته الإسلامية حيّة، وأن يصل بين تعاليم الإسلام ومشكلات الحياة.

أهداف الحركة الإسلامية:

الهدف الرئيس للحركة الإسلامية هو «رضوان الله تعالى».. بكل ما تحمله الكلمة من معان عظيمة.. ورضوان الله تعالى لا يكون إلا بتحقيق ما دعا إليه الإسلام. ويتطلب هذا الهدف تحقيق أهداف مرحلية:

أولها: إصلاح الفرد والأسرة والمجتمع، وإزالة تصورات الباطل من النفوس، وإقامة عقيدة التوحيد على أنقاض تلك التصورات.

وثانيها: إقامة مجتمع إسلامي.. لا يصدر إلا عن الإسلام، ولا يحتكم لغير القرآن.

وثالثها: إعلاء كلمة الله.. بجعل السيادة في المجتمع لله.

ورابعها: إقامة حكومة إسلامية يتولاها مسلمون يعملون بالإسلام وللإسلام.

وخامسها: تطبيق أحكام القرآن.

يقول الدكتور مصطفى السباعي[17]: «الإخوان يعتقدون اعتقاداً جازماً أن في الإسلام كل عناصر النهضة المرجوة، وأنه جاء بمنهج شامل للإصلاح.. ودعوة الإخوان تستهدف خمسة أمور:

أولاً: إصلاح الفرد.. إذ هو النواة الأولى للمجتمع، ففي إصلاحه صلاح الأسرة وصلاح الأمة.. وصلاحه إنما يتم بتطهير عقيدته من الفساد، وقلبه من الزيغ، ونفسه من الشهوة، وخلقه من الضعف، وروحه من العزلة، حتى يكون في المجتمع بنّاء يعمل بروح الأبرار، ويكافح بعزيمة المناضلين، ويفكر بعقل العلماء والحكماء.

ثانياً: إصلاح الأسرة.. إذ هي الخلية الأساسية في المجتمع، واستقامة شؤونها وتماسك بنيانها هو وحده السبيل إلى تماسك بنيان المجتمع واستقامة شؤونه.

ثالثاً: إصلاح المجتمع.. بإقامة نظم عادلة بين الأفراد والجماعات على أساس التوازن بين الحقوق والواجبات.

رابعاً: كفاح الاستعمار.. هذا الاستعمار الذي يجثم فوق صدور العرب والمسلمين، فيشل حركتهم، ويقتل كرامتهم، ويسلب ثرواتهم، ويحول بينهم وبين أداء رسالتهم الإنسانية في الحياة.. والإخوان المسلمون لا يرون لكفاح الاستعمار حداً يقفون عنده، حتى تتحرر أمتهم من كل آثاره العسكرية والسياسية والاقتصادية والفكرية. فكل عدوان على بلادهم وعلى عقائدهم وعلى كرامتهم وأموالهم يعتبر استعماراً تجب محاربته بكل وسيلة حتى تكون مقدراتهم بأيديهم، وثرواتهم تحت تصرفهم، تستعمل لمصلحتهم وخير بلادهم. والإخوان يرون كفاح

---

(١٧) د. مصطفى السباعي: دروس في دعوة الإخوان المسلمين، ص١١.

الاستعمار وأعوانه عبادة يتقرب بها إلى الله، وتشترى بها الجنة.

خامساً: توحيد العرب والمسلمين.. فالوطن العربي الكبير هو واحد في جغرافيته ولغته وعقائده وأخلاقه وتاريخه وخصائصه، فيجب أن يكون كذلك في واقعه السياسي.. هكذا آمن الإخوان بوحدة الوطن العربي، وهكذا يعملون لتوحيد الأمة العربية في هذه الكيانات المجزأة المبعثرة التي أقامها الاستعمار لتكون لقمة سائغة لمطامعه وعدوانه.

ويؤمن الإخوان بوجوب تكتل العالم الإسلامي في اتحاد سياسي واقتصادي.. وفي ظل هذا الإتحاد يستطيع العرب وكل شعب من شعوب العالم الإسلامي أن يعملوا لبلادهم ولكياناتهم الخاصة في إطار التعاون العملي الذي يجعل منهم أمة مرهوبة الجانب محترمة الكيان، تلعب دوراً خطيراً في صيانة السلام في العالم».

وحدّدالسباعي رحمه الله المهمة الرئيسية للحركة الإسلامية فقال:

مهمة الإخوان المسلمين هي[١٨]:

١ ـ تربية جيل تتمثل فيه أخلاق الإسلام وعقيدته، يحمل في الحياة رسالة الإسلام ويسعى إلى تحقيق نظامه.

٢ ـ الدفاع عن الإسلام كدعوة ودولة ونظام، ورد عادية المعتدين على الوطن الإسلامي وكف أذى الظالمين حكاماً أو أفراداً.

٣ ـ رفع مستوى الشعب في عقيدته وتربيته وثقافته ومعيشته حتى يصل إلى المستوى الإنساني الكريم الذي يريده الإسلام، وإقناعه أن سعادته بهذا الإسلام.

---

(١٨) د. مصطفى السباعي: دروس في دعوة الإخوان المسلمين، ص١٦٤.

نشاط الحركة الإسلامية:

كان للحركة الإسلامية في سورية نشاط بارز في ثلاثة ميادين من ميادين العمل الإسلامي، هي[١٩]:

● **ميدان الإصلاح الفكري والثقافي والإسلامي:**

١ - العمل على إصلاح العقيدة الإسلامية مما علق بها من آثار الجهالات والخرافات.

٢ - تحديد مفهوم الإسلام، بإحياء الإسلام الصحيح في نفوس المسلمين.

٣ - تحرير التعليم من قيوده، بإصلاح روح التعليم.

● **ميدان الإصلاح الاجتماعي:**

١ - تبنّي حركة العمال.. بتوجيههم إلى الخير وإفهامهم حقوقهم وواجباتهم، وإنشاء المدارس لتعليمهم، وتشجيعهم على تأليف النقابات، وتبني مطالبهم العادلة.

٢ - إنشاء مدارس ابتدائية وثانوية في دمشق وحمص وحماة وحلب وغيرها.

٣ - إنشاء أندية رياضية قوية في أكثر المحافظات، والاعتناء بمختلف وسائل الرياضة وأنواعها. وكان أقوى أندية الإخوان نادي فتيان بدر في دمشق، والنادي الرياضي في باب الجابية، والنادي الرياضي في الميدان، ونادي القادسية في حمص، والنادي الرياضي في اللاذقية.

٤ - الفتوّة.. وكانت هي العصب الحساس للدعوة، وكانت مراكز

---

(١٩) د. مصطفى السباعي: دروس في دعوة الإخوان المسلمين، ص١٥٣.

الفتوة منتشرة في كل مراكز الإخوان في المحافظات.

٥ ـ رفع مستوى القرية.. فقد اهتمت الدعوة بالفلاح وطالبت بإنصافه، وقام أطباء الإخوان بإرشاد الفلاحين إلى الطرق الصحية التي تحفظ لهم صحتهم وتدفع عنهم الأمراض.

٦ ـ الدعوة إلى العدالة الاجتماعية، وإنصاف الطبقات المظلومة.

٧ ـ أعمال التعاون الخيري.. قاموا بتأسيس لجان لجمع الاعانات والتبرعات وتوزيعها على المحتاجين والمرضى، وتقديم المساعدات الطبية والمالية والغذائية لهم.

● **ميدان الإصلاح السياسي:**

فقد عمل الإخوان المسلمون في حقل القضايا العربية والإسلامية بنشاط لم يعهد من غيرهم من الهيئات والجماعات.. ومن هذه الأعمال:

١ ـ الاهتمام بالقضية الوطنية في سورية: فقد حرص الإخوان على أن يساهموا بقسطهم في النضال الوطني رغم قلة وسائلهم وحداثة نشأتهم حين وقوع العدوان الفرنسي على سورية، فكانت مراكزهم مبعث حماس الجماهير، وكان شبابهم في مقدمة المجاهدين من أبناء الشعب.

ولما تم جلاء الاستعمار عن سورية، ابتدأ نضالهم الوطني في الدعوة إلى إقامة حكم صالح يزيل مساوىء الاستعمار، فوجهوا النصح إلى الحكومات الوطنية المتعاقبة، وقاوموا كل انحراف في الحكم والإدارة والسياسة.

٢ ـ تأييد القضايا العربية: لقد أيّد الإخوان قضية مصر في الجلاء ووحدة الوادي. وأيدوا نضال الشعب العربي المغربي ضد الاستعمار

الفرنسي. وأيدوا وثبة العراق ضد المطامع الاستعمارية. .

أما قضية فلسطين. . فمنذ عام ١٩٤٤ حمل الإخوان لواء الدعوة لنصرتها وإنقاذها، وتنبيه الرأي العام إلى الخطر الصهيوني، وإثارة الهمم والعزائم لاستنقاذها من الاستعمار وا لصهيونية. ولما ابتدأت معارك فلسطين بعد قرار التقسيم ساهموا في معارك بيت المقدس، وبعد وقف القتال اقترح نوابهم في المجلس النيابي تعيين أسبوع فلسطين في كل عام، وجعل دراسة القضية الفلسطينية مادة أساسية في فحوص الشهادات الدراسية، وقد أقر المجلس النيابي هذا الاقتراح وتم تنفيذه.

٣ ـ تأييد القضايا الإسلامية: أحكم الإخوان روابط الإخاء بين البلاد العربية وبين الأقطار الإسلامية، وهبّوا لنصرتها وتأييدها في قضاياها الاستقلالية وا لتحريرية، فأيدوا اندونيسيا في كفاحها مع هولندا، وأيدوا الباكستان في كشمير، واشتركوا في المؤتمر الإسلامي في كراتشي، وأيدوا قضايا المسلمين في مختلف أنحاء الأرض.

٤ ـ حركتهم السياسية في سورية: الإخوان دعاة إسلام آمنوا به على أنه رسالة إنقاذ وتحرر وقوة وحضارة، ونادوا به في الناس بهذا المفهوم، ونذروا أنفسهم لتحقيقه في المجتمع، وساهموا في الميدان السياسي والانتخابات النيابية، وساهموا في وضع الدستور وصبغوه بالصبغة العربية الإسلامية التي هي طابع هذه الأمة. وكان نوابهم في المجلس النيابي مثلاً للسياسة الوطنية الصادقة، البعيدة عن الحزبية العمياء، وقاموا بواجبهم وخدمة شعبهم.

علاقة الحركة بالحركات الدينية الأخرى:

كان في سورية عدد من الجمعيات الدينية، أهمها:

- الجمعية الغراء في دمشق، أسسها الشيخ علي الدقر عندما بدأ الغزو التبشيري في قرى حوران والأرياف السورية. وكان لها نشاط في نشر العلوم الإسلامية.
- جمعية التمدن الإسلامي.. وكان يرأسها أحمد مظهر العظمة. وكانت هذه الجمعية تميل إلى السلفية باتجاهها الفكري.
- جمعية التوجيه الإسلامي، ويرأسها الشيخ حسن حبنكه، وكانت تقوم بنشر العلم الشرعي.
- جمعية رابطة العلماء.. كان يرأسها الشيخ أبو الخير الميداني في دمشق، وكان فيها من العلماء الشيخ إبراهيم الغلاييني والشيخ السيد مكي الكتاني والشيخ عبدالوهاب دبس وزيت.

كانت العلاقة بهذه الجمعيات الدينية طيبة، وكان المشايخ يتكلمون عن السباعي والإخوان كلاماً طيباً، وكان السباعي يهتم بهم ويحترمهم ويسأل كل شيخ منهم عندما يراه أو يلتقي به عن الأمور والمشاكل التي تهمه[٢٠].

علاقة الحركة بالأحزاب السياسية:

كان السباعي سياسياً في علاقته مع الأحزاب التقليدية.. وهي:

- حزب الشعب: كانت العلاقة معه هادئة، وكانت علاقة السباعي

---

(٢٠) عدنان الطباع.. مقابلة معه في ١٩٩٣/١١/٦.
وأبو سليم.. مقابلة معه في ١٩٩٣/١٧.

جيدة بالأستاذ الدواليبي وكانت الجماعة تستأنس بآرائه السياسية باعتبار أن حزب الشعب ليس عقائدياً.

● الحزب الوطني: كان قادته شكري القوتلي وجميل مردم وصبري العسلي، وكان نشاطهم في دمشق.. وكانت العلاقة معهم عادية، وأحياناً تسوء عندما كانوا يحاولون تزوير الانتخابات.. وإجمالاً كان السباعي جيد الصلة بالجميع، وكانت له صداقات شخصية مع رجالات من الحزبين، فكان في المجتمع بارزاً.

أما الأحزاب الأخرى فكانت:

● حزب البعث: كانت علاقة السباعي وإخوانه بحزب البعث علاقة خصومة ونزاع شديد باعتباره حزباً علمانياً عقائدياً.

● الحزب الشيوعي: لم يكن له رصيد شعبي، وكانت الاصطدامات بينه وبين الإخوان كثيرة.

وكانت الخصومة بين الإخوان وبين البعثيين والشيوعيين والقوميين السوريين تشتد في أيام الانتخابات النيابية.

● الناصريون: بعد إعدام الإخوان في مصر عام ١٩٥٤، قام الإخوان والأحزاب في سورية بمظاهرات ضد الإعدامات، واستمرت العلاقة معهم في حالة سيئة.. ولما وقع العدوان الثلاثي على مصر وقف السباعي مع الشعب المصري ضد الدول المعتدية[٢١].

---

(٢١) د. حسن هويدي.. مقابلة في ١٩٩٣/١١/٣٠.
وعدنان الطباع.. مقابلة في ١٩٩٣/١١/٦.

النشاط الحركي للسباعي خارج سورية:

لم يقتصر نشاط السباعي الحركي على سورية، وإنما كان له نشاط بارز في عدد من البلدان.

فعندما توجّه إلى مصر للدراسة في الأزهر، اتصل بالإمام الشهيد حسن البنا، وأعجب بدعوته.. وساهم خلال وجوده في مصر بنشاط الحركة. وكان الإمام البنا يرى في السباعي العالم الواعي والداعية المخلص الذي سيقود الدعوة في سورية بعد عودته إليها.

وفي عام ١٩٤٨ زار الإمام البنا معسكر قطنة في سورية ليرتب تدريب كتيبة الإخوان هناك، والتقى بالسباعي.. وتدارس القائدان أمور الدعوة بشكل عام، وأمور الجهاد في فلسطين بشكل خاص..

ولما نشرت مجلة الدعوة المصرية صورة الإمام البنا والدكتور السباعي بهذه المناسبة وكتبت تحت الصورة: «السّباعي خير جندي لخير قائد».. لم يرض الإمام البنا بهذا الكلام وقال: «السّباعي قائد وليس جندياً»[٢٢].

وفي عام ١٩٥٣ زار السباعي إخوانه في مصر وتجوّل في المدن المصرية وألقى عدة محاضرات لقيت من الشعب المصري إقبالاً منقطع النظير[٢٣].

ولما اختار السباعي لبنان ليعيش فيه بعد أن أصدر الشيشكلي أمراً بإخراجه من سورية، والتفّ حوله مئات الشباب من أبناء لبنان أسس معهم الحركة التي استمرت بعد ذلك تسير على النهج الذي رسمه لها

---

(٢٢) عمر عبيد حسنة.. مقابلة في ١٩/١٢/١٩٩٣.

(٢٣) الدكتور يوسف القرضاوي.. مقابلة في الدوحة في ١٧/١٢/١٩٩٣.

السباعي[٢٤]. وأصبح مراقباً عاماً للإخوان في سورية ولبنان.

وفي سورية كان الإخوان يتصلون بالطلاب الأتراك الذين يدرسون في المدارس الشرعية، وكان بعض هؤلاء الطلبة يحضرون محاضرات السباعي ويلتقون معه، وكان يعتني بهم، واستمرت صلته بهم بعد عودتهم إلى تركيا[٢٥].

وأما صلة السباعي بالحركة الإسلامية في الأردن فقد بدأت عام ١٩٤٨ عندما قاد السباعي إخوانه في معارك القدس والتقى فيها بإخوان الأردن.. وبعد عودته إلى دمشق استمرت الصلة.. ففي عام ١٩٤٨ جاءت منه رسالة إلى السيد أحمد الخطيب رئيس شعبة الإخوان في إربد يوصيه فيها بالشيخ عبدالعزيز الخياط الذي عيّن مدرساً في ثانوية إربد. وقد أطلعني السيد الخطيب على الرسالة التي ما زال يحتفظ بها إلى الآن وهي بخط الأستاذ السباعي وتوقيعه[٢٦].

وفي عام ١٩٥٣ عندما أصبح الأستاذ محمد عبدالرحمن خليفة مراقباً عاماً للإخوان اتصل به الدكتور السباعي بالهاتف وبارك له بانتخابه مراقباً عاماً.

ويروي الأستاذ محمد عبدالرحمن خليفة استمرار الصلة والنشاط بين إخوان الأردن والدكتور السباعي فيقول[٢٧]:

«في عام ١٩٥٤ حضر الدكتور السباعي لقاء الهيئة التأسيسية

---

(٢٤) محمد المجذوب.. علماء ومفكرون عرفهم، ص٣٨٦.

(٢٥) عمر عبيد.. مقابلة في ١٩/١٢/١٩٩٣.

(٢٦) أحمد الخطيب.. مقابلة في عمان في ٤/١٢/١٩٩٣.

(٢٧) محمد عبدالرحمن خليفة.. مقابلة في عمان في ١٤/١١/١٩٩٣.

للإخـوان المسلمين في مصـر، بصفته أحـد أعضـاء الهيئة. وكنت قد اعتـذرت عن اللقـاء ولم أتمكن من حضوره، وبعد عودة السباعي إلى دمشق اتصلت به وهنأته بالعودة إلى دمشق.

وفي عام ١٩٥٤ دعـانـا الأستاذ الهضيبي إلى لقاء نتذاكر فيه أمور الـدعوة في مختلف الأقطار العربية، وتحدد موعد الاجتماع ومكانه في لبنـان لمـدة أسبـوع، وحضر المرشد من القاهرة، وحضر السباعي عن سورية ولبنان، والصواف عن العراق، وأنا عن الأردن، وعلي طالب الله عن السودان. وحضر من مصر أيضاً عبدالحكيم عابدين وسعيد رمضان وصالح أبو رقيق ومنير الدلة.. فكان لقائي الأول مع السباعي عام ١٩٥٤.

وزارنا السباعي في عمان في أيام الانتخابات النيابية عام ١٩٥٦، وجاء معه الشيخ عبدالرؤوف أبو طوق والأستاذ محمد المبارك.. وألقى السبـاعي عدة محـاضـرات، منهـا محاضرة في مهرجان كبير في ساحة الجامع الحسيني الكبير، وكان لمحاضراته أثر كبير على نتائج الانتخابات.

وبعد اللقاء الأول في بيروت، كنا نلتقي مع السباعي مرة كل شهر. وبعد اعتقال الهضيبي كوّنّا مجلساً عامّاً سميناه (المكتب التنفيذي) مقرّه في بيروت، واختـرنـا السبـاعي رئيساً للمجلس. وكان المجلس ممثلاً للدعوة في كافة الأقطار «مصر وسورية والأردن والعراق والسودان».

وعندما كنت في دمشق عام ١٩٥٥ لحضور مؤتمر، صدر الأمر من كلوب بمنع عودتي إلى الأردن، أو اعتقالي من الحدود إذا عدت، فطلب مني الإخـوان البقاء في دمشق، فبقيت ما يقارب الشهر. وكنت التقي بالسباعي باستمرار. واستمرت العلاقة معه حتى وفاته.

بعد أن اشتد به المرض اتصل بي بالهاتف وأنا في عمان وقال: «لي رجاء عندك عندما نلتقي بعد أيام في بيروت أن تتسلم رئاسة المكتب، وكنت أنـا نائبـه لقرب عمان من دمشق. فقلت: أنا لا أتقدّم عليك.. فقال: عندي صداع باستمرار وأعاني من السكر.. ولكني لم أقبل طلبه بأن أكون رئيساً للمكتب.

وكانت آخر زيارة قمت بها للسباعي في المدينة المنورة قبل وفاته بعدة شهور حينما علمت أن المرض قد استفحل معه.

رحم الله السبـاعي.. فقد كان نعم الرجل.. كان حكيماً وأفكاره نيّرة، وكان صاحب علم غزير وكفاءة نادرة».

وإجمالاً فقد كانت للدكتور السباعي صلة بجميع العاملين في الحقل الإسلامي، وكانت له صلة مع كثير من العلماء الدعاة في كثير من البلدان وخاصة علماء تركيا الذين درسوا في الشام وأصبحوا من الدعاة.. وكان بيته مفتوحاً لاستقبال الوفود من العالم العربي والإسلامي[٢٨].

الانشقاق:

في أوائـل الخمسينات من هذا القرن حدثت في دمشق عدة أمور كانت من العـوامـل الـرئيسـة التي سببت الانشقـاق في صفوف جماعة الإخوان المسلمين.. ويرى بعض المعاصرين لتلك الفترة أن في مقدمة هذه العوامل انتشار أفكار حزب التحرير في دمشق حيث وصل إليها في ذلك الوقت بعض قادة الحزب قادمين من الأردن وفلسطين..

وكـان التحريريون يتقنون الجدل والنقاش، ويرون صحة أفكارهم

---

(٢٨) أبو سليم.. مقابلة في ١٩٩٣/١١/١٧.

وأساليبهم التي تعتمد على زخم الفكر والثقافة والسياسة. وكانوا يخطّئون الإخوان في فكرهم وأسلوبهم في الدعوة، ويكثرون من انتقادهم.

وكان الإخوان يرتبطون بفكر الإمام حسن البنا من خلال الدكتور مصطفى السباعي الذي درس في مصر، وكانوا في غالبيتهم تربطهم العاطفة بهذا الفكر.

واحتدم النقاش بين الحزب والإخوان، وحدث صراع فكري وحتى دخل البيت الواحد وبين الأخ وأخيه.. وتأثّر بعض نشطاء الإخوان بأسلوب الحزب في النقد والنقاش وبدأوا يكثرون من نقد قائد الحركة الدكتور السباعي ويتهمونه بالتسلط والاستبداد في الرأي، ويتهمون الجماعة بعدم وضوح الرؤيا في بعض الأمور.. وانتهى الخلاف إلى مهاترات كان لها أثر سيّء على الجماعة.

وفي تلك الأثناء وصل إلى دمشق نجيب جويفل هارباً من السجن في مصر، فوجد الجوّ مهيأ لتنفيذ خطة قيل أنه كان قد كُلّف بها. وعمل جويفل مدرساً في المعهد العربي بدمشق، وكان يسمّي نفسه «عبدالعزيز سالم».. واستغلّ الظرف وبدأ يؤجج نار الخلاف بين الطرفين..

ولمّا اعتقل الدكتور السباعي في عهد الشيشكلي، بدأ جويفل يدعو عدداً من النشيطين في الجماعة ويكتّل مجموعة منهم خفية. وكان يركّز على التربية والتكوين ويهاجم النشاطات العامة والخطابات.. ويقصد من وراء ذلك الطعن بقائد الجماعة الشيخ السباعي.

وأخذ يهيىء النفوس ضد الشيخ، ويحاول تشكيل نظام سري خاص شبيه بالنظام الذي كان يرأسه عبدالرحمن السندي في مصر.. وبدأ ينمو

هذا النظام تدريجياً عام ١٩٥٢ ، وشكّل جويفل قيادة سرّية كان من أبرز أعضائها :

أنور حمادة - من إدلب ، وهشام جندل ، عبدالمجيد طرابلسي - من حمص ، وعلي الحسن - فلسطيني من دمشق ، وكاظم نصري ، عدنان سالم ، منير القجف ، هشام الأخرس - من دمشق . وكان تأثير هذا النظام ينحصر في دمشق وحمص ودرعا ، وكانت هذه الحركة مرتبطة بحركة الانفصال ضد الأستاذ الهضيبي في مصر(٢٩) .

ويروي السيد عدنان الطباع بعض التفاصيل عن الانشقاق فيقول(٣٠) : «في عام ١٩٥٢ قام أنور حمادة وبعض المرتبطين سرّاً بنجيب جويفل بالاتصال بعدد من شباب الإخوان وحاولوا ربطهم بمجموعتهم وإبعادهم عن الشيخ مصطفى السباعي الذي كان يقيم - في ذلك الوقت - في بيته بدمشق بإقامة جبرية . وبعد إخراج الشيخ السباعي من سورية وإقامته في المنفى ببيروت ازداد نشاطهم ، وأشاعوا بين الإخوان أن الجماعة أصبحت مرتبطة بمصر مباشرة ، ولم يعد الشيخ مصطفى مسؤولاً .

على أثر ذلك تشكل مكتب في دمشق مرتبط بالشيخ السباعي لتسيير العمل ، وطلب من الشيخ العودة سريعاً إلى دمشق حتى ولو أدى إلى دخوله السجن ، فعاد الشيخ إلى دمشق في أواخر ١٩٥٣ . .

---

(٢٩) عدنان الطباع . . مقابلة معه في ١٩٩٣/١١/٦ .
والدكتور حسن هويدي . . مقابلة معه في ١٩٩٣/١١/٣٠ .
(٣٠) عدنان الطباع . . مقابلة معه في ١٩٩٣/١١/٦ .

وبدأت لقاءات متعددة مع عدة مجموعات من الإخوان لتوضيح ما يحصل في الخفاء.. وفي هذه الأثناء بدأ الصراع يظهر للعيان، وصدر قرار من المكتب التنفيذي للإخوان في سورية بفصل علي الحسن وأنور حمادة وهشام جندل الرفاعي.. وتشكلت قيادة حيادية من الإخوان القدامى منهم: أبو الخير العرقسوسي ولطفي السيروان ومحمد خير الجلاد.. فاجتمعت للتوفيق بين الإخوان والتحقيق في التهم الموجهة للسباعي، فخرجوا بنتيجة ببراءة الشيخ مصطفى»..

ووقف إخوان دمشق الكبار وعلى رأسهم «أبو سليم» وقفة وفاء مع السباعي ضد المنشقين[٣١].

وتقدم المنشقون في الخفاء بطلب ترخيص من أمانة العاصمة باسم جمعية الإخوان المسلمين (جمعية خيرية) وأخذوا الموافقة وتسلموا مركز باب الجابية رسمياً. وبلغ بهم الأمر أن هددوا بقتل الشيخ مصطفى إذا ألقى حديث الثلاثاء في مركز الجابية. فوقف السباعي موقفاً حازماً، وذهب إلى رئيس الوزراء صبري العسلي، وتقدّم بطلب ترخيص باسم الحزب الوطني وحزب الشعب قائلاً: نريد فتح مراكز باسم الحزبين مثلما سمحتم بفتح مركز لغيرنا باسم الإخوان.. فاضطر العسلي لسحب ترخيص المنشقين..

وفي تلك الأثناء، تم فتح مركز عام باسم المكتب التنفيذي للإخوان في الشهداء ـ طريق الصالحية.. واجتمعت الهيئة التشريعية وانتخبت مكتباً تنفيذياً يمثل الجماعة بكاملها، وأغلق مركز الجابية.. فقام المنشقون بإقامة دعوى للمحكمة العليا ضد الدولة لأنها سحبت الترخيص

---

(٣١) د. حسن هويدي.. مقابلة معه في ١٩٩٣/١١/٣٠.

فلم يفلحوا[٣٢].

وكان نجيب جويفل قد اتصل بإخوان الأردن وحاول إثارة فتنة عندهم وحرضهم على السباعي والصواف.. وقد ذكر لي الأستاذ محمد عبدالرحمن خليفة هذا التصرف فقال[٣٣]: «كان نجيب جويفل يتصل بي بعد وصوله إلى دمشق ويطلب مني أن أكون مراقباً عاماً للإخوان بدلاً من الحاج عبداللطيف أبو قورة.. وبعد أن اختارني الإخوان مراقباً كان يتصل بي ويوغر صدري على السباعي والصواف، وكنت أصحح له أفكاره ومعلوماته عنهما.. وكان يظن أنني سأطاوعه في كلامه، ولما لم أستجب صار بيني وبينه جفاء..

وكان قد جاءني على رأس وفد من الشام (شباب أحضرهم لمقابلتي)، وطلب مني أن أكون مراقباً للإخوان في الأردن والشام، فرفضت مقابلة الوفد.

ولما ذهبت إلى الشام لحضور مؤتمر هناك، وبقيت في الشام قرابة الشهر، قام المنشقون بدعوتي إلى مركز الجابية، فوجدت عدداً كبيراً وألقيت فيهم كلمة وقلت لهم: والله إنه ليشرفني أن أدخل كلية الشريعة وأتتلمذ على السباعي، وذكرت لهم أوصاف السباعي وصارحتهم ونصحتهم بأن يعودوا إليه ويتفقوا معه، ورفضت أن أكون مراقباً عاماً للإخوان في الأردن والشام، وقلت لهم: إن عمان تتبع دمشق وليس العكس، ثم انسحبت من اللقاء».

---

(٣٢) عدنان الطباع.. مقابلة معه في ٦/١١/١٩٩٣.

(٣٣) محمد عبدالرحمن خليفة.. مقابلة معه في ١٤/١١/١٩٩٣.

وبعد حوادث الإخوان في مصر عام ١٩٥٤، اختلف المنشقون مع بعضهم البعض، وتبيّن لبعضهم أن نجيب جويفل يعمل عميلاً للسلطات المصرية أيام عبدالناصر، وأنه كان برتبة لواء كبير، وأن مهمته كانت تمزيق صف الإخوان في كل مكان. . حتى أنه ظهر في بعض السجون في مصر مع المكلفين من قبل الدولة بالتوعية، ولما رآه الإخوان بصق عليه بعضهم في داخل السجن. وكان من الذين تعاونوا مع نجيب جويفل ضد السباعي، أبو المكارم عبدالحي. . وكانت نهاية المنشقين أن منهم من اعتزل العمل، ومنهم من انحرف عن الإسلام وتعامل مع أعداء الحركة الإسلامية. ومنهم من اتصل بالسباعي وطلبوا منه أن يسامحهم فسامحهم[٣٤].

خليفة السباعي ونوّابه:

عندما كان السباعي مراقباً عامّاً للإخوان في سورية كان له عدد من النواب تسلموا هذا المنصب على التوالي خاصة أيام الأزمات وفترة المرض. . ومن الذين تسلموا هذا المنصب[٣٥]:

● الأستاذ محمد خير الجلاد. . وكان رئيساً لمركز الإخوان في دمشق.

● الأستاذ عمر بهاء الدين الأميري. . وكان اسمه «أمين عام الجماعة».

---

(٣٤) عدنان الطباع. . مقابلة في ٢١٩٩٣/١١/٦، وأبو سليم. . مقابلة في ١٩٩٣/١١/١٧.

(٣٥) عادل كنعان. . مقابلة في ١٩٩٣/١٢/٢٠، عمر عبيد. . مقابلة في ١٩٩٣/١٢/١٩.

● الشيخ عبدالفتاح أبو غدة. .وكان نائب مراقب عام أيام الانشقاق.

● الأستاذ عصام العطار. . كان نائب مراقب عام. وفي أثناء مرض السباعي كان يزاول أعمال المراقب كاملة. . وقد قال له السباعي: أنت وإخوانك تقومون بالعمل، وإن شئتم استشارتي تعودون إلي. . ثم صار الأستاذ عصام مراقباً عامّاً للجماعة.

ومع أن الأستاذ عصام كان من أقدر الموجودين في حمل أعباء الدعوة، ومن أرجح العاملين في الحقل الإسلامي، إلا أنه لم يتمكن من ملء الفراغ الذي تركه السباعي وخاصة بعد حل الجماعة عام ١٩٥٨. . ولعل الظروف التي أحاطت بالجماعة في تلك الفترة كانت من أسباب ذلك.

● الدكتور محمد أديب الصالح. . وكان نائب مراقب عام[٣٦].

---

(٣٦) أبو سليم. . مقابلة في ١٩٩٣/١١/١٧، عدنان الطباع. . مقابلة في ١٩٩٣/١١/٦

وموفق الشايش. . مقابلة في ١٩٩٤/١/٨، هاني طايع. . مقابلة في ١٩٩٣/١٢/٢١.

الفصل الثالث

السّباعي قائد جهاد

- كفاحه الوطني .
- كفاحه ضد الاستعمار الانجليزي .
- المقاومة المسلحة ضد الاحتلال الفرنسي .
- جهاده من أجل فلسطين :
  - جهاد الكلمة
  - جهاد السلاح
  - جهاده بعد توقف القتال .

كفاحه الوطني:

رافقت نشأة السباعي منذ الصغر ظروف قاسية مرت بها البلاد.. من استعمار وفساد وتخلّف وجهل ومظالم اجتماعية وسياسية.. وبالرغم من صغر سنه فقد كان متحسّساً هذه المظالم والمآسي، مستشعراً مسؤوليته باعتباره مواطناً يريد أن يرى بلاده حرة مستقلة وقوية. فهب متمرداً، على هذا الواقع السيء، وقام يجمع زملاءه وأصدقاءه للقيام بعمل لإيقاظ المشاعر وتعبئة القوى، ضد أعداء البلاد، وضد المظالم والانحراف المتفشي، فكان تمرده مبكراً وسابقاً لسنّه، وقد ساعده على ذلك وعي مبكر للأمور، ويقظة وفطنة وإباء ومروءة، ورثها عن آبائه وأجداده..

وكان أول عمل قام به تأليف جمعية سرية لمقاومة مدارس التبشير الأجنبية التي أنشئت بمساعدة وحماية السلطات الاستعمارية أيام الانتداب الفرنسي.. هذه المدارس التي كانت تنفث سمومها في أبناء الطبقة الثرية، وتحبب إلى طلابها الثقافة الغربية، والأخلاق والعادات الافرنجية، وتعمل على إبعادهم عن عقيدتهم وثقافتهم الإسلامية. فعمل على محاربتها، وأخذ يكتب المنشورات، ويعمل على طبعها سراً، ويتولى مع رفاقه توزيعها على الناس، داعياً فيها إلى محاربة الاستعمار ومدارسه ومظالمه، وكان يعقد لذلك الاجتماعات السرية رغم شدة وطأة الأحكام العرفية، التي كانت مفروضة على البلاد. ولم يكتف بالعمل السري، وقام يعلن الحرب على الاستعمار وجرائمه، من فوق المنابر بخطب قوية ومثيرة، ويدعو المصلين في كثير من الأحيان إلى التظاهر

والمقاومة، وكان يسير على رأس هذه المظاهرات الصاخبة، غير عابىء بالأحكام العرفية والإرهاب المفروض على البلاد، مما أزعج السلطات الاستعمارية الحاكمة، والتي لم تر سبيلاً للخلاص منه إلا باعتقاله وزجه في السجن، فألقت عليه القبض لأول مرة عام ١٩٣١ بتهمة توزيع نشرات ضد سياسة فرنسا في المغرب. . ومن هذه المنشورات يتبين لنا أن السباعي رحمه الله، لم يقصر اهتمامه على محاربة المستعمرين في بلاده وحدها، وإنما كان يحاربهم في كل مكان، وفي كل جزء من أجزاء الوطن العربي والإسلامي، فقد كان يرى الوطن العربي وطناً واحداً، والعالم الإسلامي أمة واحدة، يتتبع مشكلاتها في كل يوم، ولم يكن ليقبل ما فرضه الاستعمار على أمتنا الإسلامية من حدود وانقسام. .

واضطر الفرنسيون للإفراج عنه تخفيفاً للهياج الشعبي الذي عقب اعتقاله وهو ابن ستة عشر عاماً، ولكنه رحمه الله، ما إن خرج من السجن حتى عاد أشدّ مما كان حرباً على الاستعمار. . وعاد لإلقاء الخطب الحماسية المثيرة، فعادت السلطات الفرنسية لاعتقاله عام ١٩٣٢ وإلقائه في السجن، وذلك عقب خطاب مثير ألقاه في خطبة الجمعة في الجامع الكبير بحمص، ألهب فيه الشعور، وهيّج الجماهير، واستمر سجنه عدة شهور. .

وعندما أفرج عنه قرّر أن يتابع دراسته وتحصيله العالي، فتوجه إلى مصر عام ١٩٣٣ والتحق بالأزهر الشريف ليتابع دراسته[1].

كفاحه ضد الاستعمار الانجليزي:

عندما ذهب السباعي إلى مصر اشترك مع إخوانه هناك في العمل

---

(١) عبدالعزيز الحاج مصطفى: كتاب «مصطفى السباعي رجل فكر. .»، ص٣٦.

الوطني، فتزعم طلاب الأزهر وقاد المظاهرات ضد الاحتلال البريطاني، مما دعا المستعمرين الانجليز إلى القبض عليه وسجنه عام ١٩٣٤، ثم أخرجوه من السجن. .

وفي عام ١٩٤١ اتهمته القيادة البريطانية في مصر بتأليف جعية سرية لتأييد ثورة رشيد عالي الكيلاني في العراق، ودعوة الشعب المصري للثورة على الانجليز، وأمرت بالقبض عليه ثانية[٢]. .

يروي الشيخ مشهور الضامن هذا الحدث الذي شارك فيه فيقول[٣]: «كنا ونحن ندرس في الأزهر نخطب في المساجد ونتكلم ضد الاحتلال الانجليزي. . وبعد ثورة رشيد عالي الكيلاني في العراق، اتفقنا مع السباعي أنا وهاشم الخازندار وإبراهيم القطان على إصدار بيان للشعب المصري للتعريف بالقضية الفلسطينية، ومهاجمة السياسة البريطانية في فلسطين والمنطقة العربية. . وقررنا توزيعه يوم الجمعة من أسطح المساجد (من الطلاقات). وقام عدد من الشباب بإلقاء البيان على المصلين بعد انتهاء الصلاة بكميات كبيرة. .

وثارت ثائرة الانجليز، وبدأوا يفتشون عن الذين خططوا لهذا العمل وقاموا بتنفيذه. وكان أحد المخبرين واسمه «عزت العطار» يحضر إلى الأزهر كطالب ويتابع تحركاتنا وينقل أخبارنا. . وقد اكتشفه الأستاذ محمد علي الطاهر وكتب عنه مقالاً في جريدته «الشورى».

وكنّا نسكن في خان الخليلي. . وبعد ثلاثة أيام من توزيع البيان، دخل علينا في الليل ستة عشر رجلاً من المباحث واعتقلوني واعتقلوا

---

(٢) محمد المجذوب: علماء ومفكرون عرفتهم، ص٣٩٩.

(٣) مشهور ضامن بركات. . مقابلة معه في عمان في ٦/١/١٩٩٤.

السباعي والخازندار والقطان ووضعونا في سجن «التخشيبة» في باب الخلق، وهو أسوأ سجن في مصر، وكان تحت الأرض. .

واستدعاني مدير المباحث العامة واسمه (محمد يوسف) وسألني: من أين أنت؟ فقلت: من نابلس. . قال: من بلد محمد علي الطاهر. . لقد عملت معه معروفاً وساعدته على الخروج، فهرب من السجن. . وإن دليتوني عليه أساعدكم على الخروج من السجن. فقلت له: لا أعرف أين هو. . ـ وكنا نلتقي معه سراً في مكان ما قبل دخولنا السجن ـ فأمر بإعادتي إلى السجن. .

وانفرد بي الشيخ مصطفى في زاوية من زوايا السجن وسألني عمّا حدث معي. . فرويت له القصة، فقال لي: «اثبت على وفائك» ولا تخبر أحداً عنه لأنه رجل مخلص، وجريدته «الشورى» لها دور كبير في خدمة قضايانا الوطنية. .

وبقينا في السجن ثلاثة أشهر. . وتدخل الشيخ المراغي (شيخ الأزهر) في موضوعنا، واتفقوا على أن نخرج من مصر. واستلمتنا السلطات البريطانية في فلسطين. . ووصلنا غزة وبصّمونا، وكان الدم ينزف من أنف السباعي من شدة الحر في ذلك اليوم. وأدخلونا معتقل صرفند مدة أربعة أشهر.

وتدخل أخي الأمير عبدالله الضامن عميد عشيرة المساعيد وكان له منزلة في منطقته، وطلب من المندوب السامي إخراجي من المعتقل. . فأرسل من يخرجني فرفضت إلا مع إخواني الستة الذين دخلوا السجن معي، فاتصلوا بالمندوب السامي فجاء الجواب بالإفراج عنا جميعاً. . وذهب السباعي معي إلى نابلس وبقي عندي يومين ثم سافر إلى الشام».

ولما وصل السباعي إلى الشام قبض عليه الفرنسيون خوفاً من أن يثير عليهم الجماهير من جديد، وأخذوا ينقلونه بين سجون حمص وبيروت، ثم في معتقل «الميّة وميّة» وقلعة راشيا بلبنان مدة سنتين ونصف السنة، ذاق خلالها ألواناً من العذاب الوحشي، والتجويع والأشغال، انتقاماً لمواقفه الشجاعة ولما أشعله في قلوب الجماهير من النقمة على الاستعمار وجرائمه في كل مكان[٤].

ولمّا خرج من السجن عاد إلى ميدان الدعوة إلى الله من جديد وهو أشد إصراراً وأقوى عزيمة.. وشارك في الثورة السورية ضد الاستعمار الفرنسي، حتى تم الجلاء عام ١٩٤٥، وعمّت الفرحة أرجاء القطر السوري.

ومن بين الذين التقوا مع الدكتور السباعي أيام الدراسة في مصر، الدكتور عبدالعزيز الخياط، الذي روى ذكرياته عن السباعي في تلك الفترة فقال[٥]:

«عرفت المرحوم الشيخ مصطفى السباعي في القاهرة عام ١٩٤٠، مع زمرة طيبة كانت تجتمع كل أسبوع أو أسبوعين في بيت أحدهم.. منهم الشيخ إبراهيم القطان من الأردن، والشيخ محمد الحامد ونصوح السباعي من سوريا، والشيخ مشهور الضامن وواصف عبده وممدوح الخياط من فلسطين.

وكانت تدور في الجلسة أحاديث علمية، وتطرح قضايا سياسية، وتلقى أشعار، وتقرأ أدبيات يعدّها الإخوة الطلبة ويجري عليها النقاش.

---

(٤) عبدالله الطنطاوي: كتاب «الدكتور الشيخ مصطفى السباعي»، ص١٦.

(٥) الدكتور عبدالعزيز الخياط.. مقابلة معه في عمان في ١٩٩٤/٣/٢١.

وكنّا نستفيد من الطلبة القدامى في الدراسة كالشيخ مصطفى رحمه الله. وكنا نسكن بالقرب من بعضنا، فكان يسكن مع الشيخ مصطفى أخوه نصوح والشيخ إبراهيم الطنجير، وكنت في شقة مجاورة مع الشيخ مشهور الضامن.

وفي عام ١٩٤١ حدثت ثورة رشيد عالي الكيلاني بالعراق، وعلى الرغم من التكتيم الإعلامي عن تطورها فإن أخبارها كانت تصلنا أولاً بأول. وثارت مشاعرنا باعتبارنا طلاباً عرباً مسلمين، وقررنا أن نعمل من أجل قضية إخوتنا في العراق ضد الاحتلال البريطاني والظلم الاستعماري، وماذا يمكن أن نعمل أكثر من إثارة الشعب المصري وتنويره بما يحدث في العراق لنصرته. وكانت قبضة البوليس المصري والمخابرات البريطانية مشدّدة محكمة، والمطابع والصحف مراقبة، ولم يكن يسمح بطبع منشور أو كتاب إلا بتصريح رسمي من الجهات المسئولة.

وكان الأربعة الكبار: الشيخ مصطفى السباعي، والشيخ إبراهيم القطان، والشيخ هاشم الخزندار، والشيخ مشهور الضامن، ومعهم أحياناً الشيخ محمد الحامد، يكتبون المنشورات التي كنا نقوم نحن صغار الطلبة مثلي ومثل الشيخ واصف عبده بتوزيعها من خلال غرف الطلبة في رواق الشّوام وقت صلاة الجمعة، فكنا نتدلى بواسطة حبل من إحدى الغرف إلى سطح الجامع الأزهر، ونلقي المنشورات من فتحات السقف على المصلين في الركعة الأخيرة من صلاة الجمعة، ثم نرجع إلى الغرفة ونذهب إلى جامع صغير خلف الأزهر دون أن يشعر بنا أحد.

وكان الشيخ مصطفى رحمه الله يكتب هذه المنشورات التي أذكر من عناوينها عنوان: «الشعب العراقي جزء من الأمة الإسلامية، دماؤه دماؤنا،

وحـريتـه حريتنـا» . . وتتـالت المنشورات، وتوالى التوزيع . . أما كيفية طباعتها مع وجود الرقابة الشديدة، فلذلك قصة رائعة بطلها الشيخ هاشم الخـزنـدار، إذ كان يتفق مع صاحب مطبعـة وطني، ومـع أحد حرسها المناوب على أن يلبس ملابسه ويحلّ محله فترة المناوبة، وتستغرق عادة ثلاث ساعات، وتطبع المناشير، ويعود الجندي الحارس، في آخر الفترة، وكـان إذا مرّ ضابط التفتيش به يسأله عن الأمور فيقول له «تمام يا افندم»، وتمر المسألة بسلام، وأعصاب الشيخ الخزندار ثابتة هادئة كالحديد.

وكـان الشيخ مصـطفى (بخـاصة) على اتصال مع جماعة الإخوان المسلمين ومع الشيخ حسن البنا رحمة الله عليه، كما كانت صلته بجمعية الشبان المسلمين قوية. وكان يلقي المحاضرات في دور الإخوان وبعض النـوادي والمسـاجـد، وكـانت حرية الكلمـة في مصـر على الرغم من الاحتلال البريطاني أكثر منها في أي بلد عربي.

وفي أواخر سنة ١٩٤١، وبعد أن هدأت ثورة رشيد عالي الكيلاني، أقالت السلطات الانجليزية وزارة علي ماهر باشا واعتقلته، كما اعتقلت صالـح حرب وزير الدفاع وعبدالرحمن عزام والسيد محمد علي الطاهر صاحب جريدة الشورى، وفرضت الرقابة على شيخ الأزهر الشيخ محمد مصطفى المراغي . .

وقامت السلطات المصرية باقتحام الشقتين: الأولى يسكنها الشيخ مصـطفى السبـاعي واعتقلتـه، والثانية التي كنا نسكنها واعتقلت الشيخ مشهور الضامن، وتم تفتيش الشقتين، ولم يعثر فيهما على أي منشور. وبعد اعتقال الشيخ مشهور الضامن بيومين، عثرتُ على منشورات كان قد خبّأها في (الفرشة)، فأخرجتها وأحرقتها. ثم داهمت الشرطة رواق الشوام واعتقلت أربعـة من الـطلبـة هم الشيخ إبـراهيم القـطان والشيخ هاشم

الخزندار والشيخ فارس حمدان والشيخ عبدالحي الدويك، كما اعتقل طالب من الكويت هو السيد يوسف مشاري.

وكان بطل الاعتقالات هو أمير اللواء محمد يوسف (واعتقد أنه كان مدير المخابرات آنذاك). وَوُضع المعتقلون السبعة في تخشيبة مقر البوليس في باب الخلق مع المجرمين الذين كانوا يتعاقبون يومياً على هذه التخشيبة. وكانت سجناً مؤقتاً ينقل منه المجرمون إلى السجون الدائمة بعد الحكم عليهم.

وبقي الشيخ مصطفى السباعي وإخوانه المعتقلون خمسين يوماً في التخشيبة، وكنت أنا والمرحوم الشيخ محمد عبده هاشم نؤمّن لهم المأكل للوجبات الثلاث يومياً، فكنا نجمع الدراهم ونقوم بهذا الواجب.

ثم نقلوا بعد ذلك إلى معتقل صرفند في فلسطين، وقضوا فيه مدة وبعد مساعي حميدة تم الافراج عنهم، وعاد الشيخ مصطفى إلى دمشق.

وتوطدت علاقتي مع جماعة الاخوان المسلمين بعد ذلك ومع المرحوم حسن البنا مرشد الجماعة. ولمّا سُمح للشيخ مصطفى بالرجوع إلى مصر والانتساب إلى قسم التخصص العالي للحصول على شهادة الدكتوراة، كان الشيخ مصطفى دائم الحركة والعمل في صفوف الإخوان والجمعيات الإسلامية في مصر، وكان يحاضر ويخطب، وكان أسلوبه أسلوباً حماسياً بالإضافة إلى فقهه وعلمه.

ولمّا عاد إلى سورية أسس جماعة الإخوان المسلمين، وكنت أتابع نشاطه السياسي في سورية وفي البرلمان السوري».

وفي عام ١٩٥٢ قامت معارك دامية في منطقة قناة السويس في مصر بين المستعمر البريطاني والشعب المصري الذي نظم مجموعات مسلحة

من الشباب المؤمن (شباب الحركة الإسلامية) الذين كانوا يغيرون على المعسكرات البريطانية. . وهبّ الدكتور السباعي لنجدة إخوانه في مصر، وقدّم للحكومة المصرية كتاباً يعرض فيه تطوع آلاف من شباب الإخوان المسلمين في سورية للذهاب إلى مصر والمساهمة في معاركها. . فقامت السلطات السورية بالقبض عليه، ووضعه في السجن. . وأصدرت أمراً بحل جماعة الإخوان المسلمين، وكان ذلك في عهد أديب الشيشكلي الذي عمد إلى تسريح السباعي من وظيفته في الجامعة، وإبعاده خارج الأراضي السورية، فذهب إلى لبنان، وبقي فيها حتى انتهى حكم الشيشكلي.

المقاومة المسلحة ضد الاحتلال الفرنسي:

كان عام ١٩٤٥ موعد الحسم التاريخي للقضية السورية مع فرنسا، بعد أن نقضت هذه عهدها، ومزقت معاهدة الاستقلال التي عقدتها مع ممثلي الشعب السوري في باريس عام ١٩٣٦ فتحركت البلاد تطالب بجلاء المحتل. وردّ الفرنسيون بوحشية تجاوزت كل جرائمهم السابقة، وقامت قواتهم بحملات عدوان وإرهاب وتدمير وتنكيل بالمواطنين والثوار، وخيّم شبح الحرب على البلاد. . ومن هنا كان لا بد من اللجوء إلى السلاح، فانطلقت القوى الشعبية لقتالهم في كل بلد. .

وهبّ السباعي رحمه الله يقود المقاومة المسلحة في حمص ضد القوى الفرنسية، وأطلق الرصاصة الأولى بادئاً هذه المقاومة، وأظهر هو ورجاله بسالة نادرة وشجاعة أذهلت الأعداء وأدخلت الهلع في قلوبهم، وكبدتهم خسائر فادحة في الأرواح والعتاد. واستمرت المقاومة حتى أتم الله فضله بطرد الأعداء الذين لم يلبثوا أن:

خرجوا في مواكب العار يحدوهم هتاف الهوان والازدراء وعلى الشام

من طيوف مآسيهم بقايا الآلام بعد الوباء[٦].

جهاده من أجل فلسطين:

احتلت قضية فلسطين حيزاً كبيراً من حياة السباعي ونشاطه.. فجاهد من أجلها بكل وسيلة أُتيحت له في تلك الأيام.. ومن هذا الجهاد:

جهاد الكلمة:

كان الأستاذ السباعي يولي قضية فلسطين اهتماماً كبيراً، وكان يعتبرها قضية عقيدة ومقدسات مهددة.. فمنذ خروجه من السجن عام ١٩٤٣ أخذ يعقد الندوات، ويلقي الخطب والمحاضرات، وينبه الشعب السوري إلى الخطر الذي يحدق بالأمة الإسلامية، وما يفعله الاستعمار البريطاني في فلسطين من تمكين لليهود في الأراضي الفلسطينية..

ولما وصل إلى دمشق الشيخ نمر الخطيب قادماً من حيفا (عام ١٩٤٣) التقى به السباعي وتدارس معه أحوال فلسطين، فحدّثه عن استفادة اليهود من الحرب العالمية الثانية حيث شكلت السلطات البريطانية لهم كتائب تتدرب على القتال، وأمدتهم بالأسلحة والذخائر.. كما حدثه عن أساليب تهريب الأسلحة لليهود، فقد وصلت إلى حيفا خلال سني الحرب صناديق كبيرة باسم بعض المحلات التجارية اليهودية على أنها تحمل أقشمة وسلعاً، فتحطم منها صندوق على الرصيف فإذا به يحتوي على مسدسات وبنادق سريعة الطلقات وغيرها.. وتابع الأستاذ الخطيب كلامه قائلاً: إن الوضع في فلسطين خطير ونحن عرب فلسطين يحظر علينا حمل أبسط أنواع السلاح، والعرب والمسلمون غافلون عمّا

---

(٦) محمد المجذوب: علماء ومفكرون عرفتهم، ص٤٠١.
وحسني جرار: القدوة الصالحة، ص٢١٠.

يبيّت لفلسطين من شر بعد انهاء الحرب العالمية الثانية.. فهل لك أن تعلن صوت النذير والإيقاظ؟..

يقول الأستاذ السباعي: وكان حديثاً **دمعت له عينانا وعاهدنا الله على أن نبدأ العمل**[٧].



(٧) د. مصطفى السباعي: الإخوان المسلمون في حرب فلسطين، ص١٧.

وواصل الأستاذ السباعي كفاحه من أجل فلسطين، وبدأ يعلن صوت النذير والايقاظ، وألقى أول محاضرة عن فلسطين[٨]، في مقر الإخوان - وكان اسمهم يومئذ «الشبان المسلمون» - في باحة مسجد الدرويشية بدمشق، وانتهت المحاضرة بحماس من المستمعين خرجوا على إثرها في مظاهرة كبرى تهتف لفلسطين وتدعو إلى العمل من أجلها - رغم الأحكام العرفية التي كانت يومئذ معلنة في سورية - وقدّم المتظاهرون مذكرة بمطالبهم لرئيس الوزراء.

وانتقل السباعي بعد ذلك إلى جميع المدن السورية وشرح للجماهير خطورة الوضع.. واتهمه الغافلون عن حقائق الأمور في فلسطين بأنه بالغ كثيراً فيما سرده من حقائق.

ولما انتهت الحرب العالمية الثانية أخذ السباعي وإخوانه يعملون لفلسطين في ثلاثة ميادين[٩]:

الأول: الصعيد الرسمي بتقديم المذكرات للحكومة والجامعة العربية.

الثاني: الصعيد الشعبي بالمحاضرات والاجتماعات العامة في المدن والقرى.

الثالث: الصعيد العملي حيث أرسل الإخوان شبابهم ليزوروا فلسطين. ويطلعوا على أحوال اليهود فيها، فزاروا يافا وتل أبيب وحيفا والقدس وبعض المستعمرات اليهودية.

ولمّا كانت كارثة تقسيم فلسطين عام ١٩٤٨ إلى دولتين: عربية

---

(٨) نشرتها جريدة القبس السورية كاملة.

(٩) د. مصطفى السباعي: الإخوان المسلمون في حرب فلسطين، ص١٩.

ويهودية، وهب الشعب في جميع البلاد العربية يطالب بالتطوع في القتال لمنع التقسيم، أخذ الإخوان يعقدون الاجتماعات العامة يبينون خطر الكارثة ووضعوا لذلك ميثاقاً أخذوه على الجماهير بتأليف جيش لتحرير فلسطين يتطوع فيه كل قادر على القتال. وأعلنوا فتح باب التطوع في مراكزهم في جميع أنحاء البلاد، وأقبل الشعب إقبالاً منقطع النظير على تسجيل أسمائهم كمتطوعين في جيش التحرير المرتقب.

ولقد كانت خطب السباعي هي الوقود الذي حرّك الهمم لبذل الأموال والنفوس، حيث كان يتنقل من بلد إلى آخر، يحثّ ويوضح، ويذكّر، فيترك في كل قلب دويّاً، وفي كل بلد نشاطاً قوياً.

جهاد السلاح:

بعد أن أقبل شباب الإخوان وأبناء الشعب السوري على مراكز التطوع لتسجيل أسمائهم في جيش التحرير.. أعلنت الحكومة السورية قراراً يمنع أية هيئة من تسجيل المتطوعين، ثم اتخذت الجامعة العربية قراراً بتأليف جيش الإنقاذ، وافتتحت الحكومة مراكز للتطوع.. فطلب السباعي منها أن يكون شباب الإخوان منضمين في كتائب خاصة بهم تحت قيادة جيش الإنقاذ فرفضت ذلك. فاندمج شباب الإخوان في كتائب المتطوعين، ولكن ما سارت أفواج المتطوعين إلى فلسطين حتى أرسلوا يستغيثون من الجو الذي يعيشون فيه ويطلبون أن تكون لهم كتائب خاصة بهم ينسجمون فيها مع عقيدتهم وعبادتهم وأخلاقهم..

يقول الدكتور السباعي(١٠): «وعدنا إلى الإلحاح مرة أخرى في

(١٠) د. مصطفى السباعي: الإخوان المسلمون في حرب فلسطين، ص٢٢.

السماح لشبابنا بتشكيل كتائب خاصة بهم فكان الجواب: إذا أردتم أن تذهبوا في أفواج خاصة فنحن لا نقدم لكم سلاحاً بل يجب أن يكون سلاحكم منكم. . وأخذنا نفتش عن السلاح وكان نادراً وغالياً، واضطرني ذلك لإقامة شهر كامل في محافظة حلب نتجول في كل يوم في القرى المتاخمة للحدود التركية لشراء البنادق والمسدسات، حتى إذا تم لنا تجهيز السلاح لكتيبة كاملة انتقينا من مئات اخواننا المتطوعين في مختلف المحافظات السورية من نعلم خلوهم من عائق القتال في فلسطين واضطررنا للاقتراع بينهم. .

وتم الاتفاق بيننا وبين طه الهاشمي على أن تذهب كتيبة الإخوان في موعد معين إلى معسكر قطنا للتدريب على أساليب القتال. . وبقينا في معسكر قطنا نحو شهر ونصف حتى حان موعد ذهابنا».





السباعي والبنا رحمهما الله في ارض الجهاد يذودون عن فلسطين

ومع كل العوائق التي وضعت في الطريق فقد اندفعت كتيبة الإخوان إلى القدس بقيادة الدكتور مصطفى السباعي، ودخلت فلسطين على دفعتين:

الفوج الأول دخل بقيادة الملازم عبدالرحمن الملوحي، والمجاهد عدنان الدبس الذي كان مسؤولاً عسكرياً في مناطق القتال، والمجاهد ضيف الله مراد وكان مسؤولاً عن حفظ الأمن في مدينة القدس ومعه كامل حتاحت وزهير شاويش..

وقد دخل هذا الفوج برفقة المجاهد عبدالقادر الحسيني، وفي اليوم الثاني من وصوله توجه شبابه إلى القسطل عن طريق عين كارم، واشتركوا في المعركة مع الشهيد عبدالقادر وإبراهيم أبو ديّة. . وكانوا في مقدمة المجاهدين.

والفوج الثاني دخل بقيادة الشيخ مصطفى السباعي، ومعه من المجاهدين عزالدين العوف قائد الإخوان في حي المصرارة، ولطفي السيروان وكان مسؤولاً في القيادة عن الاتصال بين المراكز. ولما وصلوا مداخل القدس كانت معركة النبي يعقوب دائرة فتوجهوا إليها وخاضوها مع الجهاد المقدس. . وكان بينهم مجموعة من المجاهدين الصغار الذين لم تتجاوز أعمارهم خمسة عشر عاماً.

وقد زاد أعداد المجاهدين في الفوجين على مئة وخمسين مجاهداً. . وتوجهت مجموعة منهم بقيادة عدنان الدبس إلى حي القطمون للدفاع عنه ومساعدة المجاهد إبراهيم أبو ديّة. . واستشهد عدد منهم في الحي وثبتوا فيه حتى سقط بيد اليهود، بعد أن اضطر المجاهد أبو ديّة للانسحاب لإصابته واستشهاد أكثر إخوانه. .

وانسحب الإخوان إلى مقر القيادة في الروضة، فوجههم السباعي إلى منطقة المصرارة والشيخ جراح للدفاع عنها، وانضم إليهم الشيخ راضي الجوهري مع مجموعة من إخوان نابلس. . ودافع الإخوان عن المنطقة حتى وصلها الجيش الأردني وتسلمها منهم القائد عبدالله التل.

وكان الحي اليهودي في القدس محاصراً، فقام الإخوان والجهاد المقدس وباتفاق مع عبدالله التل بالهجوم على الحي وتطهيره بيتاً بيتاً، وبعد احتلاله تسلّمه الجيش الأردني.

وشارك الإخوان في معارك منطقة القدس، وساهموا مساهمة فعّالة في الدفاع عن الأقصى. . وضرب السباعي وإخوانه أروع نماذج البطولة. . يقول المجاهد عدنان الدبس عن دور السباعي في تلك المعارك[١١]:

«كان السباعي قائدنا في جهادنا، وكان مقرّه في الروضة (مركز القيادة في القدس) وكان يزورنا باستمرار في مواقعنا التي ندافع عنها في أحياء القدس، ويشجعنا على الجهاد والثبات، ويمدنا بالذخيرة والسلاح. وكان يشترك معنا في كثير من المعارك، وكان في مقدمة المهاجمين الذين احتلوا الحي اليهودي. وكان رحمه الله عندما تكون هدنة بيننا وبين اليهود لجمع القتلى والجرحى ويطلبون إلينا إرسال قائدنا للتفاوض، كنّا نرسل السباعي لمكانته بيننا ولقدرته على التفاوض».

ويقول الأستاذ إميل الغوري في كلمة له بعنوان «ذكريات من جهاد السباعي» جاء فيها[١٢]: «. . وفي ليلة ٢ أيار ١٩٤٨، وفيما كانت طلائع المجاهدين تتقدم نحو المستعمرتين الآنفتي الذكر ـ «عطاروت ونفي يعقوب» ـ فوجئنا بقدوم عدد من الرجال المسلحين، أكدّ لنا الحرس أنهم من العرب، وأنهم يريدون المساهمة في الجهاد والانقضاض على المستعمرتين، فلما ذهبنا للاتصال بهم، وجدنا أنهم «قوة سورية» مؤلفة من نحو ١٥٠ رجلاً، جلهم من الشبان، يتحرقون شوقاً لخوض غمار القتال. وكان على رأس هذه القوة المرحوم الشيخ مصطفى السباعي، في لباس الميدان متمنطقاً سلاحه للجهاد في سبيل الله. فهلّل المجاهدون

---

(١١) عدنان الدبس. . مقابلة معه في ١٣/٢/١٩٩٤.

(١٢) إميل الغوري: مجلة حضارة الإسلام، الأعداد ٤، ٥، ٦، عام ١٩٦٤، ص١٠٣.

وكبّروا، ورحبوا بإخوان الجهاد أجمل ترحيب.

وقبيل خوض المعركة الخطيرة، حاولنا إبقاء الشيخ مصطفى السباعي في مقر القيادة، وهو بعيد نسبياً عن أرض المعركة، كما سعيت شخصياً «للاحتيال» على الشيخ مصطفى وإقناعه بالبقاء في القيادة للقيام بأعمال خطيرة ومهمة. . ولكنه أبى ورفض وأصر على خوض غمار المعركة، مهما كلفه الأمر، وقال إنه لم يحضر من دمشق إلا بغية الاستشهاد في سبيل الله والوطن.

ولما لم نستطع ثني الشيخ مصطفى عن عزمه، وافقناه على ما يريد، واخترنا مركزاً يشغله وأترابه، ولكنه لم يقبل ذلك، وصمم أن يشترك بنفسه في الطليعة. فكان له ما أراد، فخاض الشيخ مصطفى ورفاقه المعركة ببطولة عظيمة، إلى جانب إخوانهم الفلسطينيين، وانتهت المعركة بنصر مؤزر للعرب.

وبعد انتهاء المعركة، رجونا الشيخ مصطفى أن يستريح قليلاً فرفض، وعرضت عليه الانتقال إلى القدس للمساهمة في الدفاع عنها، فقال لي: إني لا أقاتل من خلف الأسوار.

وانتقل الشيخ مصطفى ورفاقه، بعد معركة المستعمرات في لواء القدس، وانضم إلى قوات «الجهاد المقدس» في المنطقة الوسطى، متعاوناً فيها مع القائد المرحوم الشيخ حسن سلامة. وظل السباعي يجاهد في فلسطين حتى وقعت كارثة ١٥ أيار ١٩٤٨، فاضطر ورفاقه إلى الانسحاب من فلسطين تنفيذاً لأوامر القيادات العسكرية العربية النظامية وتعليماتها».

السباعي يطلب ذخيرة: ويروي الدكتور محمد أمير العرقسوسي جانباً من نشاط السباعي في فترة الجهاد في فلسطين فيقول[١٣]:

عندما كان السباعي وإخوانه يدافعون عن القدس، كان يهاجمهم حوالي ستة آلاف جندي من الهستدروت، ولما قاربت ذخيرتهم على النفاد، ذهب السباعي إلى عمان وإلى دمشق ليطلب ذخيرة..

وفي دمشق اجتمع برئيس الجمهورية، وكان وقتها الرئيس شكري القوتلي، ورئيس الوزراء جميل مردم بك، ووزير الدفاع أحمد الشرباتي، وشرح لهم خطورة الموقف في القدس.. وفي أثناء الاجتماع قال الرئيس القوتلي: فلتفتح مخازن وزارة الدفاع ليلاً، وليأخذ منها السباعي ما يشاء من ذخيرة وسلاح.. وجاءت السيارات ليلاً. وحملت السلاح والذخيرة وانطلقت، وانطلق خلفها الدكتور السباعي بسيارة صغيرة ومعه الدكتور زهير البيك، الدكتور تيسير طه، والدكتور العرقسوسي (وكانوا طلاباً في كلية الطب).. وكان تيسير طه يدعو ربه أن ينال الشهادة، وبعد وصولهم إلى القدس أُصيب برصاصة استقرت في جبهته فمات شهيداً..

وتابع الدكتور العرقسوسي كلامه وهو يروي هذا الخبر فقال: كنّا نحاصر الحي اليهودي في القدس، وكنا نتوقع أنه سوف يستسلم في أحد الأيام إلا أننا فوجئنا بعد ذلك أنه كانت تصل إلى الحي جميع المؤن الطازجة من فواكه وخضراوات وغيرها باستمرار.. وتبيّن أن الحي كان يتصل بإحدى المستعمرات خارج القدس القديمة بنفق.

---

(١٣) الدكتور محمد أمير العرقسوسي.. مقابلة معه في ١٩٩٣/١١/١٠
والدكتور فايز المط.. مقابلة معه في ١٩٩٣/١١/٩.

أمّا مؤرخ النكبة الأستاذ عارف العارف فقد سجل جهاد السباعي وإخوانه في كتابه القيّم «نكبة بيت المقدس» فقال[١٤]:

«اشترك من الإخوان المسلمين السوريين في حرب فلسطين زهاء أربعمئة أخ.. مئة منهم بقيادة الأستاذ الشيخ مصطفى السباعي، وهو أستاذ في الجامعة السورية. والباقون انخرطوا في صفوف جيش الإنقاذ، وقد استشهد منهم أحد عشر شخصاً، وجرح زهاء خمسين».. ثم قال عن هذه المجموعة المجاهدة[١٥]:

«وجلّهم إن لم نقل كلهم من الأسر المرموقة في سورية، ومن حملة الشهادات المثقفين، اشتركوا في معارك الحي القديم وفي القسطل والقطمون، وفي الحي الأخير هذا استشهد منهم كثيرون».

وبعد دخول الجيوش العربية وإعلان الهدنة المشؤومة اضطر الإخوان السوريون إلى مغادرة بيت المقدس مرغمين بعد أن قدّموا لفلسطين مجموعة من الشهداء الأبرار.

وسلّموا أسلحتهم بمركز الروضة للجيش الأردني الذي أنيط به عملية الدفاع عن القدس.

جهاده بعد توقف القتال:

بعد إعلان الهدنة، التي فرضت على القيادات العربية، توقف القتال، وعادت كتائب الإخوان من فلسطين.. وعاد السباعي إلى دمشق يحمل جراحات قلبه.. عاد إلى شعبه وإلى جماهيره، يروي لهم قصة

---

(١٤) عارف العارف: نكبة بيت المقدس، جـ٢، ص٤٣٦.

(١٥) عارف العارف: نكبة بيت المقدس، جـ١، ص٣٢٦.

المأساة الدامية، والنكبة المفجعة والكارثة الأليمة.. يقول السباعي رحمه الله[١٦]:

«كنا نشعر ونحن في قلب معارك القدس أن هناك مناورات تجري في الصعيد الدولي وفي أوساط السياسات العربية الرسمية. فتشاورنا في كتيبة الإخوان فيما يجب علينا فعله، بعد صدور الأوامر إلينا بالانسحاب من القدس، فقرّ رأينا على أننا لا نستطيع مخالفة الأوامر الصادرة إلينا بمغادرة القدس لاعتبارات متعددة، وأننا بعد وصولنا إلى دمشق سنرسل بعض الإخوان خفية إلى القدس مرة ثانية لدراسة ما إذا كان بالإمكان عودتنا بصورة إفرادية لنتابع نضالنا في الدفاع عن فلسطين. وعدنا إلى دمشق مع سائر أفراد الحامية وقيادتها التابعة لجيش الانقاذ، حيث تسلمت قيادة جيش الانقاذ أسلحتنا، ووعدت باستدعائنا مرة ثانية عند الحاجة..

وقمت بجولة تحدثت فيها عن معارك فلسطين، وألقيت في ذلك محاضرات في كل من دمشق وحمص وحماة وحلب واللاذقية ودير الزور وغيرها في المدن السورية، وذهل الجمهور لما أبديته من حقائق لم تكن معروفة لديهم تماماً، حتى شك بعضهم فيها، ثم انكشف الأمر وتبين صدق ما أدعي عن العوامل الخفية والظاهرة التي كانت تسيّر معركة فلسطين.. هذا بينما كان فريق من إخواننا المجاهدين قد عادوا إلى فلسطين خفية لتنفيذ ما اتفقنا عليه»..

ولم يتوقف السباعي عن العمل لقضية فلسطين، فاستمر يذكرها ويذكّر بها في كل مناسبة، وأراد أن يجعلها قضية حية عند الجماهير حتى لا تفتر روح الجهاد من أجلها، والثأر لها، والشعور بالمسؤولية الكبيرة

---

(١٦) د. مصطفى السباعي: الإخوان المسلمون في حرب فلسطين، ص٤٩.

تجاهها، فدعا إلى تخصيص أسبوع من كل عام باسم «أسبوع الخطر الصهيوني» تقام فيه المهرجانات الشعبية في سائر انحاء البلاد السورية، وقد قرن القول بالعمل، فبدأ في عام ١٩٥٥ هذا المشروع ودعا قادة الحركة الإسلامية في الوطن العربي للاشتراك في هذا الأسبوع وطاف معهم في شتى أنحاء البلاد يتحدثون عن الخطر الصهيوني ويقودون المظاهرات الشعبية لمطالبة الحكومات والمسؤولين بإعداد الشعب للمعركة. .

وواصل الحديث والكتابة عنها في مجلته «حضارة الإسلام» تحت عنوان «الدّرة المغتصبة». . ومن الكلمات المؤثرة التي سجّلها هذا المجاهد الكبير كلمة بعنوان «لن ننساها». . قال فيها[١٧]:

«في حياة الأمم، كما في حياة الأفراد، فترات من الشدة والقسوة يفر منها ضعفاء الإيمان إلى اليأس، وينهض معها أقوياء الإيمان إلى العمل. . وجراح فلسطين الدامية التي لم تندمل بعد في جسم أمتكم، إن حملت بعض القادة والزعماء على إلقاء السلاح، فإنها يجب أن تحملكم على متابعة النضال والكفاح. .

هذه فلسطينكم!. . أضاعتها الأطماع الجائعة، والشهوات الظامئة، والغفلة المسترسلة، والأحقاد الصليبية الكامنة، ولن تكون فلسطين بعد كل هذه المؤامرات إلا لنا. . نحن العرب. . نحن المسلمين. . فلسطين لنا. .

يوم تجند في سبيلها العزائم والسواعد. . ويوم تحشد لها الإمكانيات

---

(١٧) د. مصطفى السباعي: مجلة حضارة الإسلام، الأعداد ٤، ٥، ٦، عام ١٩٦٤، ص٢٠٦.

والمواهب. . ويوم نحرسها بالسلاح الشاكي والإيمان اللاهب. . فلسطين لنـا. . يوم نعزم أن نرفع رؤوسنا للسماء. . ويوم نأبى أن ننهزم وبأيدينا اللواء. . ويوم نقـول «لا» للطغـاة الأعـداء. . لا تيأسوا. . فاليأس كفر بالله. . لا ترددوا. . فالتردد مفتاح الهزيمة. . ولا تقفوا. . فالوقوف أول الموت. .

يا شبـاب: اذكروا فلسطين. . في يقظتكم ومنامكم. واذكروها. . مغداكم ومراحكم. واذكروها. . في عبادتكم ورياضتكم. واذكروها. . لأطفـالكم وأمهـاتكم. واذكـروهـا! فهي قلب وطنكم الكبير الواحد. . اذكـروها! فهي طريق الإسلام إلى عاصمته «مكة». اذكروها! فهي ثغر جزيرتكم التي يربض فيها «محمد» ﷺ.

يا شبـاب: اجعلوا لفلسـطين ما تملكون من مال، وما ترزقون من مواهب، وما تجدون من وقت، وما تفاخرون به من عرض وعقيدة. .

هذا هو طريقكم الجديد إلى وطنكم المفقود».

الفصل الرابع

كفاحه السياسي

- تقديم
- وقوفه مع القضايا الوطنية
- وقوفه مع القضايا العربية والإسلامية
- السّباعي في البرلمان
- السّباعي ومعركة الدستور
- مواقف لا تنسى
- محاولة اغتياله
- الانتخابات التكميلية

تقديم :

كان السباعي على رأس الذين لا يعتبرون السياسة مهارة في كذب . . أو لباقة في خداع . وإنما السياسة أن يهتم المسلم بأمر المسلمين ليكون منهم ، وأنّ خير السياسة ما كان قائماً على تقوى وهدى وبصيرة . . ولذلك فإنه لم يستغل الدين في سبيل السياسة ، بل جعل السياسة خادماً للدين محققاً لأهدافه السامية ، ووسيلة لخدمة الشعب وتحريره من الشرور والمفاسد والمظالم .

ولهذا فقد نادى السباعي وإخوانه بالإصلاح السياسي وعملوا له . . وأفهموا الناس أن الإسلام رسالة إنقاذ وتحرر وقوة وحضارة ، ونادوا فيهم بهذا المفهوم ، ونذروا أنفسهم لتحقيقه في المجتمع . .

وقد بيّن السباعي هذه السياسة بكلمة موجزة فقال[1] : «نحن نعتقد أن كل نظام صالح في العالم ، لا يمكن أن ينتفع به ما لم تؤيده حكومة حرة قوية صالحة . ومن أجل ذلك آمن الإخوان المسلمون بوجوب تحرير العالم العربي والعالم الإسلامي من الاستعمار مهما كان شكله ولونه ، كما آمنوا بتوحيد البلاد العربية في الوطن العربي الكبير ، والتعاون مع البلاد الإسلامية والصديقة بأي شكل من أشكال التعاون الذي يحقق قوة العالم الإسلامي ونجاته من الاستعمار ، ونهوض شعوبه من الفقر والجهل والتأخر . وفي سبيل هذه الغاية عمل الإخوان المسلمون في حقل

---

(١) د. مصطفى السباعي : دروس في دعوة الإخوان ، ص١٥٨ .

القضايا العربية والإسلامية بنشاط لم يعهد في غيرهم من الهيئات والجماعات» .

وقوفه مع القضايا الوطنية :

حرص السباعي وإخوانه في الدعوة على أن يساهموا بقسطهم في الكفاح الوطني رغم قلة وسائلهم وحداثة نشأتهم حين وقوع العدوان الفرنسي على سورية، فقد وقفوا وقفة رائعة في دمشق وحمص وحماة وحلب وغيرها من المدن السورية، وكانت مراكزهم مبعث حماس الجماهير في مقاومة العدوان، وكان شبابهم في مقدمة المجاهدين من أبناء الشعب.

ولما تم جلاء الاستعمار عن سورية، بدأ كفاحهم الوطني في الدعوة إلى إقامة حكم صالح يزيل مساوىء الاستعمار، فوجهوا النصح إلى الحكومات الوطنية المتعاقبة، وقاوموا كل انحراف في الحكم والإدارة والسياسة، ولم يجاملوا رئيساً ولا حكومة ولا زعيماً لاعتقادهم أن استقامة الأوضاع الداخلية هو الضامن لبقاء الاستقلال، وأن الحكم الشعبي الصحيح هو الذي يمثل روح الأمة واتجاهها . .

لذلك فقد نادوا بإيجاد حكومة صالحة، وشاركوا في الانتخابات النيابية، وساهموا في وضع الدستور وصبغوه بالصبغة العربية الإسلامية التي هي طابع هذه الأمة . . وكان نوابهم في المجلس النيابي مثلاً للسياسة الوطنية الصادقة، وقاموا بواجبهم وخدمة شعبهم.

وقوفه مع القضايا العربية والإسلامية:

لقد وقف السباعي وإخوانه مع جميع القضايا العربية . . فأيدوا قضية

مصر في الجلاء ووحدة الوادي، بوسائل مختلفة من التأييد، كالبرقيات والمحاضرات والمقالات والمؤتمرات، والاجتماعات الشعبية في المدن والقرى، حتى غدا الشعب واعياً لقضية مصر، مؤيداً لها.

وأيدوا جهاد الشعب العربي المغربي ضد الاستعمار الفرنسي. وأيدوا وثبة العراق ضد المطامع الاستعمارية. وحملوا لواء الدعوة لنصرة فلسطين وإنقاذها، وتنبيه الرأي العام إلى الخطر الصهيوني، وفي سبيل ذلك عقدوا المؤتمرات، وطافوا بالمدن والقرى، وخطبوا في المساجد والأندية والشوارع، وجمعوا الأموال والتبرعات، ونشروا الوثائق والاحصاءات، لتكون قضية فلسطين في نظر الشعب قضية إسلامية واضحة المعالم.. ولما ابتدأت المعارك بعد قرار التقسيم، قاد السباعي إخوانه، وكان لهم شرف المساهمة في معارك بيت المقدس والدفاع عن المسجد الأقصى.

وقد اقترح السباعي وإخوانه في المجلس النيابي تعيين أسبوع فلسطين في كل عام، وجعل دراسة القضية الفلسطينية مادة أساسية في فحوص الشهادات، وأقرّ المجلس النيابي هذا الاقتراح، وألزم وزارة المعارف به.

وقام السباعي وإخوانه بمعاداة مختلف الدول الاستعمارية ولم يخافوا بطشها، ونظروا إليها جميعاً على أنها بلاء قاتل لحيوية الشعب وكرامته.

أما القضايا الإسلامية، فقد أحكموا روابط الإخاء بين البلاد العربية وبين الأقطار الإسلامية، وهبّوا لنصرتها وتأييد قضاياها الاستقلالية والتحريرية، فأيدوا اندونيسيا في كفاحها مع هولندا، وأيدوا الباكستان في كشمير.. واشتركوا في تأييد حق المسلمين في مختلف قضايهم في أنحاء الأرض.

السباعي في البرلمان:

لمّـا كانت أولى مهام المجلس النيابي الذي انتخب عام ١٩٤٩، وضع دستور للبلاد، فقد قرّرت الحركة الإسلامية في سورية المشاركة في الانتخابات النيابية.. وتسنّم السباعي المنبر الذي كأنما خُلق له.. ولأول مرة في ذلك اليوم تسمع دمشق صوت الإسلام يدوي بالمعاني الجديدة للانتخاب البرلماني، الذي يريد السباعي وإخوانه أن يكون وسيلة لتجديد رسالة دمشق التي بدأتها أيام الفتوح الأولى.. فكان السباعي ذلك البطل الذي هزّ منابر دمشق وأثار عزائمها وحفز شبابها لاستعادة مكانتها في خدمة دعوة الإسلام، وتحرير أرض المسلمين..

واختــارت دمشق الـدكتـور مصـطفى السبـاعي نائبـاً في الجمعية التأسيسية عام ١٩٤٩، وهو ابن حمص ولمّا يمض على إقامته في دمشق سوى بضع سنين.. وسرعان ما لمع نجمه كبرلماني شعبي متفوق.. إذ كان الصـدى الحقيقي المعبر لأماني الشعب وآلامه، والصوت المدوّي الذي يصدع بالحق ولا يداري، ويقارع الباطل ولا يهادن، ويترفع عن المكـاسب والمغـانم ولا يسـاوم.. فاتجهت إليه الأنـظار والتفت حوله القلوب، وانتخب نائبـاً لرئيس المجلس، وأصبـح عضواً بارزاً في لجنة الـدستور. وقد بذلت له العروض بإلحاح وإغراء للدخول في الوزارات المتعاقبة فرفضها مؤثراً العمل الشعبي، والعيش مع مشكلات الجماهير وقضاياها.

السباعي ومعركة الدستور:

كان السباعي من أبرز رجال السياسة الصادقين.. وكان عضواً بارزاً في لجنة الدستور، وأحد الأعضاء التسعة الذين وضعوا مسودة الدستور..

وفـرض الـطابـع الإسلامي على معظم أحكامه الأساسية[٣] . . والشعب السـوري يعرف له جهاده في إقناع مجلس النواب بعد مناقشة استمرت ثلاثة أشهر ليصوت على قوانين إسلامية ووضعها في صلب الدستور ومن أهمهـا «أن الإسلام دين الدولة الرسمي[٤]» . . كما طالب في المجلس النيابي بتدريس القضية الفلسطينية كمادة أساسية في مناهج التعليم، وقد أُقِرّ هذا الاقتراح ونُفِّذ بالفعل[٥].

إن حياة الأستاذ السباعي حافلة بالمآثر الجليلة والمواقف الخالدة. . وفي مقدمتها تلك المواقف التي شهدتها سورية في «معركة الدستور» عام ١٩٥٠ . . فقد كان خصوم الإسلام يصرون على فصل الدين عن الدولة وعلى علمـانية الدستور. . وكان لمواقف السباعي وإخوانه في البرلمان آنذاك، الفضل الأوفى في تكريس إسلامية الدستور السوري.

ولقد كان للبيان الذي أذاعه السباعي في ذلك الحين أكبر الأثر في استقطاب التأييد الشعبي لموقفه العتيد. . وحرصاً على الفائدة، وحفظاً للتاريخ نثبت هنا النص الكامل لهذا البيان التاريخي[٦]:

الدين والدولة في نص البيان التاريخي

الحمد لله والصلاة والسلام على رسله وعلى دعاة الحق والخير إلى يوم الدين. . لقد كنت أوثر بناء على رغبة لجنة الدستور ورغبة المخلصين جميعـاً، أن يظل النقـاش حول دين الـدولة محصوراً بين أعضاء لجنة

---

(٣) محمد المجذوب: علماء ومفكرون عرفتهم، ص٣٩٨.

(٤) أبو سليم. . مقابلة معه في عمان في ١٩٩٣/١١/١٧.

(٥) عبدالعزيز الحاج مصطفى: كتاب مصطفى السباعي رجل فكر، ص٧٩.

(٦) مجلة حضارة الإسلام، الأعداد ٤، ٥، ٦، عام ١٩٦٤، ص١١٢.



ولقد قاد السباعي معركة القرآن تحت قبة البرلمان، كما قاد المظاهرات في دمشق من أجل الدستور.. وما زال أبناء سورية لهذا اليوم يتحدثون عن المظاهرات التي قادها السباعي من أجل هذه الغاية..

يقول الأستاذ رضوان دعبول عن ذكرياته لهذه المواقف(٢): «كنت وأنا في الصف الرابع الابتدائي أمرّ في شارع النصر القريب من سوق الحميدية المشهور، وإذا بي بمظاهرة يتقدّمها في الصف الأول أحد العلماء يلبس عمامة بيضاء، وجبّة رمادية أميل إلى الزرقة، طويل القامة، أبيض أميل للشقرة.. لقد كانت المظاهرة من أجل دستور الدولة.. وكان هذا العالم هو الدكتور مصطفى السباعي».

وتمكن السّباعي وإخوانه من استبعاد الطابع العلماني عن الدستور،

---

(٢) رضوان دعبول.. مقابلة في ١٥/٢/١٩٩٤.

الدستور، والمجلس التأسيسي، ومن أجل هذا أوقفت كل نشاط في الدعاية لهذه الفكرة، سواء في أوساط الجمهور أو الأندية العامة، أو على صفحات الصحف، ولم أبد رأيي من قبل إلا حين طلبت مني «المنار» الإجابة على أسئلة تتعلق بهذه الفكرة، فأجبت بما أعتقد أن فيه غاية الصراحة واللياقة ومراعاة شعور المعارضين لنا، وخاصة أبناء الطوائف الأخرى.

ولكني قرأت أول الأمس بياناً نشرته بعض الصحف لمن أسموا أنفسهم خريجي الجامعات العليا وزعموا أنهم كلهم مسلمون، وقد خانتهم الجرأة والشجاعة فلم يذكروا لنا اسماً من اسمائهم لنعرف مبلغ الصدق فيما ادعوه من تخرجهم من الجامعات العليا ومن انتسابهم إلى دين الإسلام.

وقرأت أمس بياناً من بطريركية الروم الكاثوليك بدمشق، كما قرأت مثله في معناه لبعض أحبار النصرانية في المدن السورية..

وحيث نزل أصحاب الرأي الثاني إلى الميدان الصحفي الشعبي يدلون بآرائهم وحججهم، أصبح من واجبنا أن ندلي بحججنا وآرائنا، وأن نطلع الرأي العام على حقيقة فكرتنا، وأن نناقش أدلة المخالفين ونفندها والأمر بعد ذلك كله للشعب، إذ هو مصدر كل سلطة وسيادته هي السيادة الحاكمة التي تتمثل في مجلسه التأسيسي وحكومته الدستورية:

لماذا نطالب بالنص على دين الدولة؟

الدساتير تعبر عن رغائب الشعوب، واتجاه قادتها وممثليها في الإصلاح الذي يلزمها، ولا شك أننا نحن السوريين جزء من الأمة العربية، وإرادة الأمة العربية واضحة جلية في أنها تريد أن تشق طريقها إلى المجد

في ظلال العقيدة والأخلاق، تلك هي طبيعة الأمة العربية في جاهليتها وفي إسلامها وفي حاضرها، وكل ادعاء بغير هذه الحقيقة يكذبه الواقع، وكل محاولة للانحراف بالأمة العربية عن هذا السبيل ستصده إرادة الأمة الحازمة، وكل دعوة إلى اتجاه نحو العلمانية والإلحاد تنذر بخطر جسيم على حاضر العرب ومستقبلهم، فالانسانية اليوم تتجه نحو الروح والإيمان بعد أن حطمت المادية أعصابها وجرتها إلى الشقاء ولسنا نحاول التدليل على ميل الأمم الحديثة نحو هذا الاتجاه بعد أن أقرت هيئة الأمم افتتاح حفلاتها بصلاتها لله لأنها في حاجة إلى حمايته.

وسنذكر فيما بعد أن أحدث الدساتير الراقية من شرقية وغربية قد نصت على الدين في دستورها، وإذا كانت الانسانية في حاجة إلى الأديان ترد إليها الثقة والطمأنينة فنحن أحوج ما نكون إلى هذه الثقة والطمأنينة خصوصاً بعد أن قامت بجوارنا دولة إسرائيل وهي دولة تجند الدين لتجمع شمل اليهود في العالم، وتستثير حماستهم، وتستدر أموالهم وقد نصت في أول دستورها على أنها قائمة على المبادىء التي جاء بها أنبياء إسرائيل، كما نصت في آخر مادة من دستورها على أن القضاء رقيب على القوانين الحالية بحيث يجب أن يردها إلى التشريع اليهودي وأن كل تشريع سينشأ في المستقبل يجب أن يقوم على أساس التشريع اليهودي، فإذا كانت هذه تجند الدين لتوطيد أقدامها في فلسطين ثم لتمديد عدوانها إلى ما يجاورها، ونحن أول من يتعرض لعدوانها، أفلسنا ملزمين بأن نجند الدين لإلهاب الشعور العام واستثارة حماسة الشعب وبذل ماله في التسلح وتقوية الجيش وبذل الجهد والطاعة والتنفيذ لكل نظام في الدولة يؤدي إلى قوتها وصيانتها؟! أفلسنا نحتاج إلى الدين بعد أن رأينا في معركة فلسطين أن الذين حاولوا أن يستثيروا العرب عن غير طريقه فشلوا، وأن الذين

جاهدوا واستبسلوا واستشهدوا لم يدفعهم إلى ذلك إلا الدين الذي يعدهم بالخلود في الجنة، إذا وهبوا أرواحهم لله؟. إننا نحاول أن نبني دولة، فلتكن على أسس قوية، ونحاول أن نعالج مشاكل، فلنعالجها بروح واقعية، ونحاول أن نحل أزمة مستعصية، فلنعرف أقرب الطرق إلى حلها، ولست أرى أصدق من تصوير واقعنا ووقائع الانسانية اليوم من كلمة للورد صموئيل زعيم حزب الأحرار البريطاني إذ قال في خطاب له بتاريخ ٢٥ شباط ١٩٤٧: «إن الأزمة الحالية التي تعانيها الانسانية هي أزمة أخلاقية، ويجب إنعاش الروح الدينية إذا أردنا التغلب عليها».

وما دمنا في حاجة إلى الإيمان لنتغلب به على الصعاب ونحل به أزمتنا النفسية والأخلاقية، فلنجعل هذه الرغبة في دستورنا واضحة جلية، حتى تكون الخطة واضحة لكل حكومة وكل مجلس وكل متزعم لهذا الشعب في المستقبل، ومن ثم فالنص على أن للدولة ديناً أمر ضروري تحتمه مصلحتنا الاستقلالية والوطنية والأخلاقية، ولا يعارض في هذا الأمر إلا من يريد أن نسبح في بحر العلمانية الملحدة لنتردى في الشقاء أكثر مما نحن فيه، ونفقد البقية الباقية من الأمل بالمستقبل والثقة بالنفس، والقوة المعنوية، التي تحيل هزائم الشعوب إلى انتصارات خالدة.

ولماذا يجب أن يكون دين الدولة الإسلام؟

إذا كان النص على أن للدولة ديناً أمراً تحتمه المصلحة العامة، فأي دين ينبغي أن يكون دين الدولة؟

١ ـ القواعد الديمقراطية

إن القواعد المتبعة في دساتير العالم وأنظمة الأحزاب ومداولات المجالس النيابية، بل في عرف الدنيا جميعاً أن رأي الأكثرية هو المتبع

والمعمـول به، فإذا قلنـا أن دين الـدولة الإسلام وهو دين تسعة أعشار السوريين ودين ٩٨٪ من العرب أنكون في هذا قد تجاوزنا الحق؟ وأهدرنا المنطق؟ وخالفنا الديمقراطية؟ وهذه هي الدول التي نصت دساتيرها على دين معين إنما اتخذت دين الأكثرية دينها الرسمي في كثير من الأحيان.

فجمهورية الأرجنتين نصت في المادة الثانية من دستورها الصادر في ٢١ آذار ١٩٤٩ أنها تدعم أو تؤيد أو تساند المذهب الكاثوليكي الرسولي الـرومـاني. وهـذه جمهـورية ايرلندا تنص في دستورها الصادر في عام ١٩٣٧ أن الكنيسة الكاثوليكية هي الكنيسة المفضلة ذات الامتياز في الجمهورية.

هذا عدا عن دساتير الدول العربية والإسلامية، وليس في الدنيا دولة لا يدين شعبها إلا بدين واحد: بل في كل دولة أكثرية في الدين وأقلية، فهل نكون قد أتينا ببدع من الأمر إذا مشينا على القاعدة التي تمشي عليها دول العالم؟

٢ ـ المصلحة الداخلية

والـدولـة السورية اليوم في وضع داخلي مؤلم لا ينكره أحد، وعبثاً تحاول النظم والقوانين أن تصلح روح أمة ما لم يكن معها وازع نفسي من دين وخلق، فإذا أردنا لهذا الشعب حياة كريمة، وتعلقاً بالدولة ودفاعاً عن الوطن كان النص على دين الدولة الإسلام حافزاً للشعب ـ وهو في أكثريته السـاحقة مسلم ـ أن ينفذ النظم التي تسن له، والأوامر التي تصدر في مصلحته من حكوماته، إذ يرى في ذلك أمراً دينياً محتماً لا يجوز التخلي عنه، ولعمري أن أية حكومة في الدنيا مهما كانت قوية راقية تحتاج إلى هذا الوازع الديني النفسي فكيف تستغني عنه جمهوريتنا الناشئة المحاطة بالصعاب!؟

٣ ـ المصلحة القومية

ونحن السوريين دعاة وحدة عربية، نعتبر أنفسنا جزءاً من الأمة العربية، ووطننا السوري جزءاً من الوطن العربي الأكبر، وجمهوريتنا هي اليوم عضو في الجامعة العربية، وستكون غداً بفضل الله جزءاً من الدولة العربية الواحدة، والعرب سبعون مليوناً على أقل تقدير، ثمانية وستون مليوناً منهم مسلمون واثنان مسيحيون، ودول الجامعة «ما عدا لبنان لوضعه الخاص به» تنص في دساتيرها على أن دين الدولة الإسلام كما في مصر والعراق والأردن، أو يقوم واقعها على ذلك كالمملكة العربية السعودية واليمن فالنص عل أن دين الدولة الإسلام عامل قوي من عوامل الوحدة الشعبية بيننا وبين إخواننا العرب، ومظهر رسمي من مظاهر التقارب بين دول الجامعة العربية، فلماذا نهمل أقوى عامل من عوامل الوحدة العربية شعبية ورسمية، ولماذا نتجاهل الواقع الملموس؟..

٤ ـ المصلحة السياسية

والعالم اليوم ينقسم إلى كتل سياسية كبرى وكل معسكر يسعى إلى توسيع نفوذه الثقافي والاقتصادي والفكري والاستعماري.. ويبذل في سبيل ذلك الأموال الطائلة والجهود الجبارة.

ونحن العرب في واقعنا المؤلم وفي حياتنا المقبلة لا بد لنا من ميدان نفوذ يساعدنا في الميادين الدولية، ويتصل بنا بعاطفة الحب أو الصداقة أو التعاون، وقد جعل الإسلام لنا في العالم الشرقي ميدان نفوذ يضم أربعمئة مليون مسلم كلهم يحبون لغتنا وتراثنا وكتابنا وثقافتنا، حتى أن الباكستان قد قررت اعتبار اللغة العربية لغة رسمية لها، وقد رأيناها في هيئة الأمم تدافع عن حقنا في فلسطين دفاعاً حاراً قوياً استحق شكر الدول العربية وشعوبها، من حيث كانت الدول الغربية المسيحية تتآمر على مهد

السيد المسيح ومبعث رسالته، فهل وقفت الباكستان هذا الموقف، وهل اتخذت لغتنا لغة رسمية إلا من أجل الإسلام الذي آمنت به وبنت دولتها وحياتها على أسسه؟ وقل مثل ذلك في اندونيسيا المجاهدة، وقد نصت هاتان الدولتان الكبيرتان اللتان يبلغ عدد سكانهما مائة وخمسين مليوناً في مشروع دستوريهما على أن دينهما الإسلام، أفليس مما يقوي الرابطة بيننا وبين هذه الدول والشعوب أن نعترف بالإسلام ديناً وهو ديننا الذي صدرناه إليهم ونشرناه في ربوعهم؟ ألسنا في حاجة إلى أسواق تجارية لمنتوجاتنا؟ ألسنا في حاجة إلى معونات اقتصادية؟ ألسنا نجد في هذه الشعوب ميدان نفوذ طبيعي بريء للغتنا وثقافتنا وتراثنا وحضارتنا؟ فلمن نترك ذلك كله؟ لمن نتخلى عن مصلحتنا السياسية والاقتصادية والثقافية؟ هل يستطيع أحد أن يقول لنا ذلك بصراحة وجرأة؟!

وبعد، فهذه هي بعض الفوائد التي نجنيها من النص على هذه المادة في الدستور وهي كما يرى القارىء فوائد محققة لا نستغني عن واحدة منها في حياتنا المليئة بالمتاعب والمشاكل.. فما هي المساوىء التي تنشأ عن هذه المادة؟ سنحاول تلخيصها والإجابة عنها بايجاز على أن نعود إلى هذا الموضوع بالبسط والتوضيح.

اعتراض الطوائف المسيحية

يتضح مما قرأناه لرؤساء الطوائف المسيحية، ومما سمعناه منهم أن اعتراضهم ينصب على ناحيتين اثنتين:

١ - إن معنى دين الدولة الإسلام، أن أحكام الإسلام ستطبق على المسلمين والمسيحيين. ولما كانت للمسيحيين عقائد وأحكام وأحوال شخصية تختلف عن الإسلام فكيف يجبرون على أحكام الإسلام؟

وهـذا الفهم خاطىء من نواح عدة، أهمهـا: أن الإسـلام يحتـرم المسيحية كدين سمـاوي ويتـرك لأهلهـا حرية العقيدة والعبادة دون أن يتدخل في شؤونهم، أما أحوالهم الشخصية فلا يتعرض لها بحال، ولا يمكن أن يطبق عليهم أي حكم من الأحكـام التي تخالف شريعتهم أو تقاليدهم وأحكام الإسلام في ذلك واضحة، وكتب التشريع الإسلامي بين أيدينا، ووقائع التاريخ لا ينكرها إلا مكابر، وقد ظل المسيحيون العرب منـذ عصـر الإسـلام حتى الآن يتمتعون بعقيدتهم وعبادتهم، وأحوالهم الشخصية لم تتعرض لها دولة ولا حكومة، في الوقت الذي كان الحكم فيه للإسلام خالصاً، فكيف يتوهم الآن أن يطبق عليهم أحكام تخالف دينهم ونحن في دولة برلمانية شعبية الحكم فيها للشعب ممثلاً في نوابه المسلمين والمسيحيين؟ . . ونزيد على ذلك أنه مع احترام الإسلام لكل ما ذكرناه فنحن لم نكتف بذكر هذه في الدستور بل اقترحنا أن تنص على احتـرام الأديان السماوية وقدسيتها واحترام الأحوال الشخصية للطوائف الـدينية، فكيف يخـطر في البـال بعد هذا أن هنالك خطراً على عقيدة المسيحيين وأحوالهم الشخصية؟!

٢ ـ إن معنى دين الدولة الإسلام العداء للأديان الأخرى، وانتقاص غير المسلمين في حقوقهم والنظر إليهم نظراً يختلف عن اتباع الدين الرسمي.

وهذا خطأ بالغ أيضاً، فليس الإسلام ديناً معادياً للنصرانية حتى يكون النص عليه عداء لهـا، بل هو معترف بها ومقدس لسيدنا المسيح عليه السـلام، بل هو الدين الوحيد من أديان العالم الذي يعترف بالمسيحية وينزه رسولها الكريم وأمه البتول، وقد أمر القرآن الكريم أتباعه أن يؤمنوا بالأنبياء جميعاً ومنهم عيسى عليه السلام فأين العداء وأين الخصام بين

الإسلام والمسيحية؟

وأمـا توهـم الانتقـاص من المسيحيين، وامتياز المسلمين، فأين الامتياز؟ أفي حرية العقيدة، والإسلام يحترم العقائد جميعاً، والدستور سيكفـل حرية العقـائـد للمـواطنين جميعـاً؟ أم في الأحوال الشخصية والإسلام يحترمها والدستور يضمنها؟ أم في الحقوق المدنية والتساوي في الواجبات، والإسلام لا يفرق بين مسلم ومسيحي فيها، ولا يعطي للمسلم في الـدولـة حقـاً أكثـر من المسيحي، والـدستـور سينص على تساوي المواطنين جميعاً في الحقوق والواجبات؟

إني سأضع أمام القراء وأمام أبناء الشعب جميعاً نص المادة المقترحة في هذا الشأن ليروا بعد ذلك أي خوف منها وأي غبن يلحق المسيحية فيها:

٢١ ـ الإسلام دين الدولة.

٢ ـ الأديان السماوية محترمة ومقدسة.

٣ ـ الأحوال الشخصية للطوائف الدينية مصونة ومرعية.

٤ ـ المـواطنـون متساوون في الحقـوق لا يحال بين مواطن وبين الوصول إلى أعلى مناصب الدولة بسبب الدين أو الجنس أو اللغة.

إني أسأل المنصفين جميعاً وخاصة أبناء الطوائف الشقيقة: إذا كانت المادة التي تنص أن دين الدولة الإسلام هي التي تتضمن هذه الضمانات كلها، فأين الخوف، وأين الغبن، وأين الامتياز للمسلمين وأين الانتقاص لغيرهم؟

اعتراض القوميين

ويعتـرض بعض القـوميين بأن النص على دين معين للدولـة ينفي

اعتراض العلمانيين

ويعترض دعاة العلمانية في بلادنا كما جاء في البيان المنسوب إلى خريجي الجامعات العالية بأن (الشعوب التي سبقتنا في ميدان الحضارة مرت من مرحلة الدين في التنظيم والحكم حيث كان رجال الدين يسيرون أمور الدولة إلى مرحلة القومية، ثم هي تنتقل اليوم إلى مرحلة التنظيم على أساس التكتل السياسي والاقتصادي ذي الصبغة العالمية).

ونحن نجيبهم بأن النص على دين الدولة ليس معناه أن يسير رجال الدين أمور الدولة، ولو كان كذلك لما وضعت هذه الأمم التي سبقتنا في ميدان الحضارة في دساتيرها النص على دين الدولة.

وفيما يلي بيان لبعض الدول الحديثة التي تنص في دساتيرها على دين معين.

أسوج، نروج، دانيمرك، انكلترا، بلغاريا، بيرو، كوستاريكا، باناما، اسبانيا، بوليفيا، الأرجنتين، ايرلندا، ايتاليا، اليونان (قبل الحرب الأخيرة) بولونيا (قبل النفوذ الشيوعي) جميع دول شرق أوروبا (قبل النفوذ الشيوعي) مصر، العراق، الأردن، ليبيا، إيران، الأفغان، باكستان، اندونيسيا، إسرائيل المزعومة (!..)

فما قول العلمانيين في صنع هذه الدول الحديثة؟ ألا يدل على أن النص على دين الدولة لا يتنافى مع تطور الحضارة وتقدم المدنية؟ أم يعتبرونها دولاً رجعية لا تزال متأخرة؟. وأيضاً فقد اعترف هؤلاء بأن الأمم انتهت من مرحلة القومية إلى مرحلة التكتل السياسي الاقتصادي، فلماذا يرون من الأمور الطبيعية أن تتكتل بلغاريا وهنغاريا وتشيكوسلوفاكيا والبانيا ورومانيا والمجر والصين وغيرها على أساس الشيوعية وهي عقيدة حديثة

الوحدة بين أبنائها، وأن سورية ذات أديان مختلفة فلا يصح أن ينص على دين معين.

والواقع أنه ليس في سورية إلا مسلمون ومسيحيون، وقليل جداً من اليهود. أما الطوائف فهي كلها ترجع إلى هذين الدينين، وفي النص الذي ذكرناه سابقاً ضمان لحقوق المواطنين جميعاً وتساويهم وضمان لعقائدهم وأحوالهم الشخصية، فأي تفرقة في هذا النص؟

وهل في الدنيا دولة ليس فيها إلا دين واحد أو مذهب واحد؟ فهل منع تعدد الأديان أو المذاهب كثيراً من الدول على أن تنص على دين معين أو مذهب معين؟

إن الوحدة القومية بين العرب ليست باطراح عواطف ثمانية وستين مليوناً وإهمال هذا الرابط الديني القوي بينهم، وإذا كان مفهوم القوميات في أوروبا يحتم إخراج الدين من عناصرها الأساسية، فذلك لا ينطبق علينا نحن العرب. إن ألمانيا النازية قد تجد في المسيحية ديناً غريباً عنها، وإن تركيا الطوارنية قد تجد في الإسلام ديناً غريباً عنها، ولكن العرب لن يجدوا في الإسلام ديناً غريباً عنهم، بل هم يؤمنون بأن قوميتهم العربية لم تولد إلا في أحضان الإسلام ولولاه لما كانت ذات وجود حي قائم.. فليفرق دعاة القومية بين أوروبا والشرق، وبين نصرانية الغرب وإسلام العرب.

وإذا أضفنا إلى ذلك أن الإسلام يحترم المسيحية ويؤمن بها ديناً سماوياً لم يبق عندنا في القومية العربية دينان يصطرعان حتى نطرحهما لتسلم لنا قوميتنا، وإنما هناك دينان يتعاونان على بناء القومية العربية بناء سليماً عالمياً خالداً.

لديهم ولا يرون من الطبيعي أن تتكتل مصر وسورية والعراق واليمن والحجاز والأردن على أساس الإسلام وهو عقيدة هذه الأقطار، أليس الإسلام نظاماً اجتماعياً شاملاً كالشيوعية، ولكنه أسمى منها مبدأ وأنبل غاية؟ أم أنتم لا ترونه كذلك أيها العلمانيون؟ فلماذا لا تصارحون الشعب بسوء ظنكم بالإسلام وصلاحه للحياة؟

ومن العجيب أن يحرص العلمانيون في بيانهم على الروابط التي تربط ما بين السوريين وبين المغتربين في الخارج وهي روابط نحرص عليها، ثم لا يبالون بالروابط بين السوريين وبين سبعين مليوناً من إخوانهم العرب، ولا ندري متى كان النص على دين الدولة سيقطع ما بيننا وبين إخواننا المغتربين؟، أليسوا يعيشون في دول قد نصت في دساتيرها على دين الدولة؟ . . أليسوا حريصين على قوة هذه البلاد ومصلحتها؟ ولو فرضنا أن النص سيجعل فتوراً بيننا وبينهم (وهذا فرض مستحيل) ولكنه سيربط ما بيننا وبين العرب، فهل تريدون منا أن نغضب سبعين مليوناً من العرب؟ لئن أردتم ذلك كنتم قد كفرتم بالعروبة رابطة قومية، بعد أن جحدتم الإسلام نظاماً اجتماعياً صالحاً.

وأعود فأقول لهؤلاء أن «البعبع» الذي يخوفون به بعض المثقفين من أن النص على الإسلام ديناً للدولة يجعل لرجال الدين الكلمة الأولى في البلاد، هو بعبع لا يخيف إلا من خيم الوهم والباطل على عقولهم، فليس في الإسلام رجال دين تكون لهم الكلمة العليا ونحن لا نريد بهذا النص أن نلغي البرلمان ونطرد ممثلي الأمة، ونمحو القوانين. كلا كونوا مطمئنين!! فسيظل كل شيء على حاله. وسيبقى لنا مجلسنا ونوابنا وقوانيننا وأنظمتنا ولكن. . مع سمو الروح ونظافة اليد، واستقامة الأخلاق وعيش الإنسان الكريم! . .

اعتراض الحقوقيين

ويعترض بعض الحقوقيين بأن جعل دين الدولة الإسلام يلغي القوانين الحالية ويضطرنا إلى تنفيذ الحدود الإسلامية من قطع يد السارق وجلد الزاني، وهذا قول خاطىء، فنحن لا نفكر قطعاً بالدعوة إلى تنفيذ الحدود، لأن الإسلام نظام كامل لا يظهر صلاحه إلا في مجتمع كامل، ومن كمال المجتمع أن يشبع كل بطن، ويكتسي كل جسم، ويتعلم كل إنسان، ويكتفي كل مواطن، فإذا وقعت السرقة مثلاً بعد ذلك وقعت شراً محضاً لا يقدم عليه إلا العريقون في الإجرام، والإسلام يريد أن يرهب هؤلاء الذين لم يردعهم العلم ولا الشبع ولا العيش الكريم عن الوقوع في الجريمة.

وخلاصة القول أننا لا نريد انقلاباً في قوانيننا الحالية، وإنما نريد التقريب بينها في التشريعات المدنية وبين نظريات الإسلام الموافقة لروح هذا العصر ولا صدق النظريات الحقوقية السائدة فيه، فإذا اتفق التشريع الإسلامي مع المنظريات الحديثة فهل تجدون حرجاً في الأخذ به تراثاً عربياً تعتزون به وتفاخرون؟

هذا مع العلم بأن مسألة التشريع غير مسألة دين الدولة، فليس لوضع دين الدولة من غرض إلا صبغ الدولة بصبغة روحية خلقية تجعل النظم والقوانين منفذة من الشعب بوازع نفسي خلقي، ومن أغراض هذه المادة تقوية الصلات بيننا وبين اخواننا العرب والتعاون بيننا وبين الشرق الإسلامي.

أما الحدود الإسلامية فلا تستلزمها هذه المادة بدليل أن مصر والعراق وضعتا هذه المادة في دستوريهما منذ ربع قرن ولم تفكرا بإقامة الحدود الإسلامية.. هذا ما نصرح به علناً لا مجاملين ولا مواربين.

وبعد فهذه خلاصة الأدلة التي تحتم علينا وضع هذه المادة في الدستور وخلاصة الأجوبة على ما يخاف منها، ونحن نرجو أن يبحث هذا الأمر بحثاً واقعياً بعيداً عن العصبية الطائفية والأهواء المستحكمة ونعتقد أن الأحبار الأجلاء رؤساء الطوائف المسيحية يشعرون معنا بخطر الإلحاد على الأديان جميعاً، ونحن نعلن أننا نفضل أن يكون دين الدولة المسيحية على دولة علمانية ملحدة، فهل هم يفضلون الإلحاد على الإسلام؟. . ونريد أن نذكرهم أن العلمانية لا تضمن حقوق الطوائف ولا تزيل التعصب الطائفي وإنما الذي يضمن ذلك، الدين الذي جعل من تعاليمه أن يترك الناس وما يعتقدون، وأن الناس جميعاً عباد الله أكرمهم عنده أتقاهم وأنفعهم.

أما إخواننا القوميون فنحب أن يكونوا قوميين عرباً حين يبحثون هذه الناحية وأن لا يفضلوا مراعاة شعور وهمي محصور في ناحية ضيقة على حقيقة ثابتة شائعة في دنيا العرب جميعاً، نحب أن لا يكونوا قوميين سوريين بل قوميين عرباً. .

أما العلمانيون فلسنا نقول لهم بعد أكثر من أن نتوجه إليهم بالرجاء أن لا يحولوا بين هذه الأمة ومصادر قوتها. . نحن شعب نريد أن نرجع إلى الله فلا تحولوا بيننا وبينه. ونريد أن نمد أيدينا إلى إخواننا العرب فلا تحولوا بيننا وبينهم، ونريد أن نستند إلى أصدقاء أقوياء فلا تحرمونا منهم، ونريد أن نتعاون مسلمين ومسيحيين، مستمعين إلى صوت السماء وتعاليم الإنجيل والقرآن فلا تملأوا عقولنا بالباطل، ولا تصكوا أسماعنا بأغنية الشيطان!. . **﴿قل هذه سبيلي ادعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين﴾**.

دمشق في ٢١ ربيع الثاني ١٣٦٩ و ٨ شباط ١٩٥٠.

مواقف لا تنسى:

للسباعي رحمه الله مواقف كريمة يحفظها له الناس، ويذكرونها له دائماً بالإعجاب والتقدير.. ومن هذه المواقف:

● بعد فرض الهدنة في فلسطين عام ١٩٤٨ وتوقف الحرب، وإكراه المجاهدين على التراجع عن الأرض المباركة.. فإن وقف القتال لم يمنع السباعي من مواصلة الطريق وأداء الواجب، فعاد من جهاد البندقية إلى جهاد البيان، ومضى يكشف للناس ستور المؤامرة الكبيرة، والمخططين لها والضالعين معهم. وما زال يكافح في هذا السبيل حتى استطاع إقناع المسؤولين بإدخال القضية الفلسطينية كمادة دراسية في مناهج التعليم، كي تظل الأجيال على ذكر لها، ووعي لملابساتها وأبعادها، وراح في الوقت نفسه يعقد البحوث حولها بصورة مستمرة في مجلة حضارة الإسلام[٧].

● وفي عام ١٩٥١ ألقى كلمة في جلسة مجلس النواب المنعقدة بتاريخ ١٩٥١/٨/٣ بمناسبة حوادث الحدود مع إسرائيل قال فيها[٨]:

إننا شعب مصمم على أن يموت، أو أن ينال حقه بيده، فهو قد كفر بكل عدالة تأتيه من الخارج، لقد كفر بكل عدالة تأتي من أولئك الذين يتوسدون أرائك مجلس الأمن وهيئة الأمم والذين لا يستوحون ضمائرهم وإنما يستوحون أنانياتهم.

وبهذه المناسبة أعلن ما كررناه من قبل، **أننا يجب أن نفكر في علاقاتنا بالمعسكر الغربي، إن من واجبنا أن نفكر بعلاقاتنا بهذه الدول،**

---

(٧) حسني جرار: القدوة الصالحة، ص٢١٦.

(٨) مجلة حضارة الإسلام ـ الأعداد ٤، ٥، ٦، عام ١٩٦٤، ص١٩٢.



في صفوف الجماهير معبرا دوما عن آمالها وآلامها

إننا جديرون بأن نصون كرامتنا إزاء هؤلاء الذين يستهزئون بكرامتنا وبإرادتنا، ولا أدري إلى متى نسير بإرادتهم ومتى نفكر بالخروج على تلك الإرادة؟

وقد يقال أننا ضعفاء، واننا لا نملك من الأمر شيئاً، ولكن لأن نموت ونحن نلطم الذي يلطمنا، خير لنا من أن نموت ونحن نقدم خدنا لمن يريد أن يلطمه، ورقابنا لمن يريد أن يتحكم بها، ولذلك أرجو من اللجنة السياسية التي سوف تجتمع عما قريب وأرجو من الجامعة العربية إذا كان في الأموات رجاء، أرجو من هؤلاء أن تستيقظ ضمائرهم بعد الآن، وأن يستيقظ فيهم الشعور الحي، وأن يسمعوا صدى إرادة هذه الأمة وشعورها

في مختلف أقطارها، أرجو أن يستيقظوا على هذه الصرخات.

من الواجب أن نفكر بعد الآن كيف ينبغي أن تكون علاقاتنا مع هذه الدول، فلا نجاملها ولا نجعل مصيرنا مرتبطاً بها. لئن كانوا يظنون أن في هذا التعدي ما يرهبنا ويخيفنا.

فليعلم العالم أننا شعب لا يخالف الحروب، وإننا أبناء هذا الجيل قد ولدتنا أمهاتنا على لمعان نيران الحروب وعلى ضوء مدافعها، وعلى بطاح معاركها وبريق أسنتها، ونحن أمة رضعنا حب الحروب من أثداء أمهاتنا، فلن تخيفنا الحروب، ولن ترهبنا النكبات، ولقد تعرضنا في تاريخنا الماضي كثيراً إلى مثل هذه النكبات التي تألبت علينا واستمرت مئات السنين، ثم لم ترهبنا ولم ترجعنا عن عزيمتنا.

وقد وطّنا النفس على أن نرد العدوان مهما كان شأنه، فلا يطمع بنا الطامعون من الدول الكبرى، وليعلموا أنهم في اثارتهم لإسرائيل في هذه الظروف علينا، لا يستطيعون أن يحملونا على الصلح، وإنني اعتقد أنني أعبر عن حقيقة واقعة، وهي أنهم لم يجدوا في هذه البلاد ولا في أي قطر عربي آخر رجلاً واحداً ترضى له كرامته وترضى له وطنيته أن يرى الصلح مع إسرائيل أو يقبل به، إلا إذا كان معناه الموت، وإلا إذا كان معناه تسليم رقابنا للجزارين الأشرار. إن الصلح مع إسرائيل خيانة وطنية، فلا يفكرن أحد بأن يحملنا عليها.

● وفي عام ١٩٥٢ قامت معارك دامية في منطقة قناة السويس في مصر حيث كانت القاعدة البريطانية الكبرى قد فرضت سيطرتها على الشعب المصري وعلى حكامه، مما جعل فئة من الشباب المؤمن في مصر تثور ضد الاحتلال البريطاني وطغيانه، فنظموا العصابات المسلحة

من الشباب الجامعي وقاموا بالإغارة على المعسكرات البريطانية وعملوا على نسف مراكزها العسكرية وجسورها وقطارات المؤونة التابعة لها. فهب السباعي رحمه الله يدعو الأمة لمؤازرة الشعب العربي في مصر، وقدّم إلى وزير مصر المفوض كتاباً يعرض فيه تطوع آلاف من شباب الإخوان المسلمين للذهاب إلى القنال والمساهمة في معركتها. ولكن السلطات السورية ألقت القبض عليه وزجته في سجن المزة قرابة أربعة أشهر[٩].

● وكان الفقيد العظيم أشد الناس بغضاً للانقلابات العسكرية، لإيمانه أن السبيل الوحيد للإصلاح أياً كان، إنما هو الفكر الحر والمنطق العلمي المبني على الحجة المقنعة.. وهذا ما دفعه إلى استنفاد مجهوده في سبيل إقناع أديب الشيشكلي بإعادة الحياة البرلمانية إلى البلاد، بعد تلك الاندفاعة الحمقاء التي قوّض بها العهد الدستوري..

ولهذا ففي أواخر عام ١٩٥٢ تعرض الدكتور السباعي لمضايقة السلطة الحاكمة التي فرضت عليه رقابة مزعجة تحصي عليه حركاته وسكناته.. ولم يكتف الشيشكلي بهذه المضايقات ولكن اشتط في ذلك وطلب من أساتذة الجامعة وكبار الموظفين أداء قسم الولاء لعهده والدخول في الحركة التي أسسها باسم «حركة التحرير» ولكن السباعي الذي تعشق الحرية وعاش يدافع عنها بلا هوادة رفض الانصياع للأوامر وأبى أداء القسم لعهد غير شرعي، فغضب الشيشكلي وأصدر مرسوماً بتسريحه من الجامعة، وأبعده عن البلاد. فاختار رحمه الله لبنان وبقي فيها حتى أواخر عهد الشيشكلي. وهناك في لبنان التف حوله مئات من الشباب الجامعي المثقف وأظهروا له استعدادهم لإنشاء حركة إسلامية في لبنان بقيادته.

(٩) فتحي يكن: الموسوعة الحركية، ص١٤٧.

وفعلاً فقد أسس معهم الحركة التي استمرت بعد ذلك تسير على النهج الذي رسمه لها السباعي رحمه الله[10].

● وفي عام ١٩٥٤ عقد مؤتمر في بحمدون بلبنان، دعت إليه طائفة من رجال العلم والسياسة الأمريكيين باسم (المؤتمر الإسلامي المسيحي).. وكان الهدف الأبعد لهم هو تأريث العصبية الدينية، ضد الشيوعية، بوصفها عدوة الأديان جميعاً. وبعد تردد رأى دعاة الإسلام في دمشق حضور المؤتمر لقطع الطريق على المستغلين.

وفي بحمدون دار نقاش طويل عريض حول الدين والإلحاد والماركسية، وكاد الأمر يتحول لمصلحة السياسة الأمريكية، فطلب وفد دمشق الكلام.. وقُدّم السباعي لإيضاح رأيه، فتلا عليهم كلمة جامعة مانعة بعنوان «جواب الإسلام على الشيوعية»، كان لها أكبر الأثر في الأوساط الأمريكية والإسلامية. كما أنها أوضحت للأعضاء الأمريكيين أن عداء الإسلام للماركسية لا يمكن أن يُنسي المسلمين عدوانهم على فلسطين، وتشريد أهلها لتوطين شذاذ الآفاق من يهود العالم، بالتعاون أو التنافس مع الاتحاد السوفييتي نفسه! (سابقاً).

وهكذا استطاعت صراحة السباعي أن ترد الأمريكيين إلى بعض الوعي، فيعلنوا اعترافهم بظلم قومهم، ويعدوا بأنهم سيعملون على توعية شعوبهم بهذه الحقيقة[11].

●وفي عام ١٩٥٦ وعندما واجهت دول الاستعمار الثلاث الولايات

---

(١٠) محمد المجذوب: علماء ومفكرون عرفتهم، ص٣٨٦.

(١١) محمد المجذوب: علماء ومفكرون عرفتهم، ص٤٠٣.
وعبدالله الطنطاوي.. مقابلة معه، في ١٩٩٤/١/٧.

المتحدة وبريطانيا وفرنسا إنذارها لمصر بعد تأميم قناة السويس، قام السباعي يدعو الشعب للوقوف إلى جانب إخوانه في مصر، وكان له الفضل في تحويل الجامعة إلى ما يشبه الثكنة العسكرية، فانخرط أساتذتها وطلابها في المقاومة الشعبية، وظل السباعي في أثناء حوادث العدوان يلبس لباس المقاومة الشعبية، وكان يريد أن يجعل من هذا الزي زياً شعبياً لعموم أبناء الشعب.

محاولة اغتياله:

كان لموقف السباعي من العدوان الثلاثي على مصر أثر كبير في أوساط الدول الاستعمارية.. ونتيجة لهذا الموقف فقد حاولت هذه الدول قتله هو ومجموعة من الشخصيات الإسلامية والإخوانية التي كانت تساعده وتتبنى آراءه، وتعمل على تنفيذها.

ففي مطلع عام ١٩٥٦ حاول أحد المجرمين المأجورين اغتيال السباعي، ولكن الله ردّ كيد الآثمين وفضح مخططهم، وسلم السباعي من مؤامرتهم، وتمكنت سلطات الأمن من إلقاء القبض على المجرم الذي اعترف بأنه يعمل لمصحلة دولة أجنبية أغرته باغتيال السباعي لقاء مبلغ ضخم.. وأن المخطط كان يستهدف عدداً من الشخصيات الإسلامية والوطنية، وأن السبب هو وقوف السباعي رحمه الله، في وجه الأحلاف الغربية، وجرأته في حربها، وكشف نواياها الاستعمارية، ودعوته الصريحة لنبذ الغرب والاعراض عنه.. وقد نشرت الصحف المحلية السورية في ذلك الوقت نبأ محاولة الاغتيال بعناوينها الرئيسية[١٢].

---

(١٢) عبدالعزيز الحاج مصطفى: مصطفى السباعي رجل فكر، ص٤٤.
وعبدالله الطنطاوي: الدكتور الشيخ مصطفى السباعي، ص٣٣.

الانتخابات التكميلية:

جرت في دمشق عام ١٩٥٦ انتخابات تكميلية لمقعد نيابي في مجلس النواب.. وخاض السباعي معركة الانتخابات مرشحاً عن الإخوان المسلمين.. ووقف معه العلماء والجمعيات الإسلامية وبعض الشخصيات مثل الدكتور الدواليبي والشيخ الزرقاء وغيرهم. وكان الرأي العام في دمشق جميعه مع السباعي.

وكان منافسه في الانتخابات رياض المالكي مرشحاً عن حزب البعث.. ووقفت معه الأحزاب اليسارية والناصريون الذين موّلوا حملته الانتخابية، وكفتارو الذي نقض العهد مع السباعي مقابل منحه امتياز خط باصات بين دمشق وبعض المناطق.

واشتد التنافس والصراع وزوّرت الانتخابات وأُعلن فوز رياض المالكي. وكان لهذه النتيجة ولتزوير الانتخابات تأثير كبير على السباعي الذي كان يحترق في خطبه، كما كانت أحد العوامل التي ساعدت بعد فترة على إصابته بالشلل[١٣].

---

(١٣) موفق الشاويش (أبو زيد).. مقابلة معه في ١٩٩٣/١/٨.
وعدنان طباع.. مقابلة معه في ١٩٩٣/١١/٦.

الفصل الخامس

نشاطه الاجتماعي ورحلاته

- نشاطه في ميدان الخدمة الاجتماعية:
  - تبنّي حركة العمال
  - رفع مستوى القرى والفلاحين
  - إنشاء المدارس والمعاهد
  - الأندية الرياضية
  - المعسكرات الكشفية
  - أعمال التعاون الخيري
- المؤتمرات والرحلات
- رحلات الحج والعمرة.

نشاطه في ميدان الخدمة الاجتماعية:

مرت البلاد السورية في عهد الاحتلال الفرنسي بأحوال اجتماعية سيئة. . فقد انتشر الجهل والفقر والمرض، ووقعت البلاد فريسة للفساد والمظالم الاجتماعية. .

وبعد رحيل المستعمر وإعلان الاستقلال عمل السباعي وإخوانه على خدمة الشعب وتحريره من الشرور والمفاسد والمظالم. .

وكان للسباعي جولات وجولات في ميدان الخدمة الاجتماعية، ومن أبرز الصفات التي عرفت عنه قدرته الفائقة على التحسس بمشكلات الحياة الراهنة. . فقد كان يعيش بعقله ولبّه وبقلبه وعاطفته، ولهذا استطاع أن يجعل علمه وثقافته الإسلامية حيّة، وأن يصل بين تعاليم الإسلام ومشكلات الحياة. ومن أبرز الأعمال التي قام بها:

● **تبنّي حركة العمال:**

تبنّى السباعي وإخوانه حركة العمال، وحملوا عبء الدفاع عن حقوقهم، وطالبوا برفع مستواهم المادي والاجتماعي والأخلاقي، وتبنوا مطالبهم في المجلس النيابي. وكان للسباعي دور كبير في النص على حقوق العمال في الدستور السوري، كما عمل مع إخوانه من نواب الإخوان على إنشاء مدارس للعمال لتعليمهم ورفع مستواهم الفكري وإخراجهم من نطاق الأمية، وتوجيههم إلى الخير، وإفهامهم حقوقهم وواجباتهم. . ولم يقتصر على إنشاء هذه المدارس في دمشق وحدها بل عمل مع إخوانه على إنشاء مدارس للعمال في جميع المحافظات ومعظم

الأقضية والقرى.. وبلغ عدد العمال الذين يتلقون العلم فيها أكثر من خمسة آلاف عامل يتعلمون بالمجان، وأنهى كثير من هؤلاء العمال دراستهم الابتدائية والمتوسطة والثانوية، وتخرج بعضهم في الجامعة بعد أن أتم تعليمه الجامعي والعالي.

● **رفع مستوى القرى والفلاحين:**

وجه السباعي وإخوانه عنايتهم إلى القرى وطالبوا برفع مستواها.. وطافوا الكثير منها، وعاشوا مع الفلاحين وعرفوا مشاكلهم، وطالبوا برفع مستواهم وإنصافهم، وتحقيق العدالة الاجتماعية في محيطهم، وقد رفعوا أصواتهم بذلك في المجلس النيابي، معبرين عن مشاعرهم، حيث طالبوا بإيصال الكهرباء إلى جميع القرى النائية وتوفير المياه والمدارس والخدمات الصحية لها.. ولم يكتف السباعي بدعوة الحكومات للقيام بذلك، بل بادر إلى تأليف لجان من الإخوان فيها أطباء وعلماء وموجهون يقومون برحلات أسبوعية إلى القرى، يزورون فيها الفلاحين ويقدمون لهم الخدمات الصحية والتعليمية ويرشدونهم إلى طريق الخير.

● **إنشاء المدارس والمعاهد:**

قام السباعي مع نفر من إخوانه بتأسيس المعهد العربي بدمشق الذي شمل جميع المراحل التعليمية من الحضانة إلى الثانوي للذكور والإناث، كما أسسوا مثل هذه المعاهد في بقية مراكز المحافظات السورية[1].

● **الأندية الرياضية:**

كان السباعي يشجع الشباب على ممارسة أنواع الرياضة والفتوة

(١) محمد بسام الأسطواني: مجلة حضارة الإسلام ـ الأعداد ٤، ٥، ٦، عام ١٩٦٤، ص١٥٦.

ليكون الشباب قوياً في جسمه، قوياً في روحه، فساهم في تأسيس عدد من الأندية الرياضية في مراكز الإخوان في جميع المحافظات، وكان أقوى هذه الأندية: نادي فتيان بدر في دمشق لكرة السلة، والنادي الرياضي في باب الجابية، والنادي الرياضي في الميدان، ونادي القادسية في حمص، والنادي الرياضي في اللاذقية وغيرها.

كما عمل على تربية الشباب تربية عسكرية خشنة فأنشأ لهم «نظام الفتوة»، وقد انتظم الشباب في كتائب وفرق تعودوا فيها على النظام والخشونة والرجولة، وتدربوا على مختلف الألعاب الرياضية. وكان السباعي رحمه الله القائد العام لفتوة الإخوان المسلمين إلى أن حلّ الشيشكلي هذه المنظمات وصادر ممتلكاتها.

وقد كان للفتوة دور كبير في المحافظة على النظام وإضفاء هيبة الحركة على الاحتفالات والمهرجانات العامة التي كانت تقيمها.. ويروي الأستاذ رضوان دعبول موقفاً من مواقف الفتوة فيقول:

«في عام ١٩٥٦ عقد السباعي مؤتمراً إسلامياً في دمشق، حضره نخبة من علماء المسلمين في جميع أنحاء العالم. وقد ترأس السباعي هذا المؤتمر الذي تم فيه بحث قضايا ومشكلات العالم الإسلامي. وكانت الجلسة الختامية في ساحة جامع دنكز.. وكنت وقتها طالباً في المرحلة الثانوية وممّن حضر هذا اللقاء.. وكان الخطباء يتحدثون، فإذا ببعض من حضر من الشيوعيين يحاول إثارة الشغب في الحفل.. ولما استمر الشغب، قال عريف الحفل كلمة دوّت في أرجاء المكان: «فتوّة.. أخرجوهم».. فما كان إلا أن خرج المشاغبون وعاد الهدوء إلى المكان.. وقد كان المتحدث هو الدكتور مصطفى السباعي».

ليكون الشباب قوياً في جسمه، قوياً في روحه، فساهم في تأسيس عدد من الأندية الرياضية في مراكز الإخوان في جميع المحافظات، وكان أقوى هذه الأندية: نادي فتيان بدر في دمشق لكرة السلة، والنادي الرياضي في باب الجابية، والنادي الرياضي في الميدان، ونادي القادسية في حمص، والنادي الرياضي في اللاذقية وغيرها.

كما عمل على تربية الشباب تربية عسكرية خشنة فأنشأ لهم «نظام الفتوة»، وقد انتظم الشباب في كتائب وفرق تعودوا فيها على النظام والخشونة والرجولة، وتدربوا على مختلف الألعاب الرياضية. وكان السباعي رحمه الله القائد العام لفتوة الإخوان المسلمين إلى أن حلّ الشيشكلي هذه المنظمات وصادر ممتلكاتها.

وقد كان للفتوة دور كبير في المحافظة على النظام وإضفاء هيبة الحركة على الاحتفالات والمهرجانات العامة التي كانت تقيمها..

ويروي الأستاذ رضوان دعبول موقفاً من مواقف الفتوة فيقول:

«في عام ١٩٥٦ عقد السباعي مؤتمراً إسلامياً في دمشق، حضره نخبة من علماء المسلمين في جميع أنحاء العالم. وقد ترأس السباعي هذا المؤتمر الذي تم فيه بحث قضايا ومشكلات العالم الإسلامي. وكانت الجلسة الختامية في ساحة جامع دنكز.. وكنت وقتها طالباً في المرحلة الثانوية وممّن حضر هذا اللقاء.. وكان الخطباء يتحدثون، فإذا ببعض من حضر من الشيوعيين يحاول إثارة الشغب في الحفل.. ولما استمر الشغب، قال عريف الحفل كلمة دوّت في أرجاء المكان: «فتوّة.. أخرجوهم».. فما كان إلا أن خرج المشاغبون وعاد الهدوء إلى المكان.. وقد كان المتحدث هو الدكتور مصطفى السباعي».

● **المعسكرات الكشفية:**

أقام السباعي وإخوانه عدداً من المعسكرات الكشفية لشباب الحركة الإسلامية.. وكان أهم هذه المعسكرات في حمص، والزبداني، ويبرود، وحلب (عين التل) واللاذقية[٢].

وكان الشباب يقومون برحلات جماعية إلى هذه المعسكرات.. وكان ما يتم فيها من تعارف وتوثيق لصلات الأخوّة، وطعام مشترك، وإلقاء الخطب في مساجد القرى إحدى أهداف الحركة الإسلامية.. كما كانت الفتوة والنشاط الرياضي، وتربية الشباب وتدريبهم أحد الجوانب المضيئة في حياة الدعوة.. زد على هذا أنّ جميع الشباب الذين كانوا يشاركون في هذه المعسكرات كانوا يستمتعون بحديث القائد المربّي الأستاذ مصطفى السباعي.

● **أعمال التعاون الخيري:**

ساهم السباعي وإخوانه بتأسيس عدد من اللجان لجمع الإعانات والتبرعات من الناس، وتوزيعها على المحتاجين من المرضى والعاجزين، وبعض الأسر الفقيرة التي تتعفف عن السؤال والاستجداء. كما عملوا على تنظيم يوم سنوي باسم «يوم الفقير» تطوف فيه اللجان على الأحياء والتجار، لجمع الإعانات وتقديمها للفقراء في مواسم الشتاء والأعياد. وساهموا في إنشاء عدد من المستوصفات الصحية لتقديم الخدمات الصحية المجانية للفقراء والمحتاجين[٣].

---

(٢) عبدالله الطنطاوي.. مقابلة في ١٩٩٤/١/٧.

(٣) محمد بسام الأسطواني: مجلة حضارة الإسلام، الأعداد ٤، ٥، ٦، عام ١٩٦٤، ص١٥٦.

المؤتمرات والرحلات:

كان السباعي رحمه الله ممّن يتقدم الصفوف بحمل المسؤولية.. ولهذا فقد كانت حياته مليئة بالنشاط، داخل البلاد وخارجها.. ولقد شارك في مؤتمرات كثيرة، كان من أهمها:

في عام ١٩٥١ رأس وفد سورية إلى المؤتمر الإسلامي العالمي في الباكستان، فكان من أبرز شخصيات المؤتمر وأكثرها نشاطاً وإنتاجاً.

وفي عام ١٩٥٣ شارك في المؤتمر الإسلامي العام الذي عقد في



الدكتور السباعي رئيس الوفد السوري في المؤتمر الاسلامي بكراتشي.
ويظهر في الصورة الاستاذ الاميري والاستاذ المبارك.

القدس، وكان السباعي يومها نائباً لرئيس البرلمان السوري[٤].

---

(٤) كامل الشريف. اتصال هاتفي في عمان في ١٩٩٤/١/٣.

وفي عام ١٩٥٤ رأس وفد سورية إلى المؤتمر الإسلامي المسيحي المنعقد في بحمدون، وألقى هناك خطابه المشهور عن «الإسلام والشيوعية» فذعرت له الدوائر الاستعمارية الغربية التي كانت تستر وراء المؤتمر. إذ أن هذا المؤتمر قد تم بتنظيم من جمعية أصدقاء الشرق الأوسط الأمريكية، ودعيت إليه وفود من جميع أنحاء البلاد العربية وباكستان وتركيا وإيران وغيرها من بلاد العالم الإسلامي. وقد تردد الوفد السوري أول الأمر في قبول الدعوة ثم رأى السباعي وبعض إخوانه قبولها لإحباط ما قد يكون وراء المؤتمر من مناورات سياسية! فقد كان القصد من الدعوة إلى المؤتمر هو إنشاء كتلة عالمية باسم الإسلام والمسيحية ضد الاتحاد السوفييتي (سابقاً). ولم يكن يومها من مصلحة العرب الانقياد وراء المناورات الغربية لإنشاء هذه الكتلة.

وكان من أبحاث المؤتمر المقررة «جواب الإسلام على الشيوعية».. وقد وقع اختيار الوفود العربية على الدكتور السباعي لإلقاء كلمة عن «الشيوعية في نظر الإسلام»، فكتب كلمته وترجمت إلى الانجليزية، ثم ألقاها فضيلته، فكان لها وقع القنبلة، التي حوّلت المؤتمر إلى تظاهرة رائعة للانتصار لفلسطين واللاجئين والقضايا العربية والإسلامية.. وقد أعرب جميع أعضاء الوفود العربية والإسلامية عن إعجابهم الشديد بهذا الخطاب الجامع الذي اتصف بالجرأة والدقة العلمية والتاريخية والسياسية. أما بقية الوفود وخاصة الداعين للمؤتمر فقد تملكتهم الدهشة والارتباك أمام هذه المفاجأة التي فوتت عليهم أغراضهم وأضاعت عليهم الفرصة المنشودة.

وقد نشر هذا الخطاب في الصحف والمجلات السورية يومئذ، كما نشر كاملاً في نشرة المؤتمر، ضمن الأبحاث والكلمات التي ألقيت فيه.

والحق أن الخطاب المذكور يشكل وثيقة تاريخية، تمثل أحد المواقف الجريئة للسباعي، وتبرهن على الأصالة والعمق في الوعي السياسي لديه[٥].

وفي عام ١٩٥٦ عقد السباعي مؤتمراً إسلامياً في دمشق، حضره نخبة من علماء المسلمين في جميع أنحاء العالم.. وترأس السباعي هذا المؤتمر الذي تم فيه بحث قضايا ومشكلات العالم الإسلامي.



الفقيد مع لفيف من الطلاب العرب أمام المركز الإسلامي بلندن.

---

(٥) مجلة حضارة الإسلام - الأعداد ٤، ٥، ٦، عام ١٩٦٤، ص١٥٣.
وعبدالله الطنطاوي. مقابلة في ١٩٩٤/١/٧.

وفي عام ١٩٥٦ أيضاً أوفدته الجامعة السورية إلى ديار الغرب لزيارة الجامعات الغربية والاطلاع على مناهج الدراسات الإسلامية فيها، فزار إيطاليا وبريطانيا وايرلندا وبلجيكا وهولنده والدانمرك النرويج والسويد وفنلندا وألمانيا والنمسا وسويسرا وفرنسا، واجتمع فيها بالمستشرقين من أساتذة الدراسات الإسلامية والشرقية، وناقشهم في مؤلفاتهم عن الإسلام، وكشف لهم أخطاءهم العلمية والتاريخية، وفضح أساليب بعض المستشرقين الغربيين الذين يحاولون الدس والافتراء على الإسلام وإظهاره بغير صورته الحقيقية(٦).

كما أنه استفاد من وجوده في تلك البلدان فألقى محاضرات في المساجد والجامعات، وفي الندوات التي دافع فيها عن حقوق العرب في فلسطين والجزائر وغيرها من قضايا العرب والإسلام، ومن أهم الخطب التي ألقاها خطبة الجمعة في مسجد باريس.

وفي عام ١٩٥٧ ذهب إلى موسكو مع إخوانه عمداء كليات الجامعة بدعوة من جامعة موسكو. زار خلالها معظم الجامعات الروسية في مختلف الأقاليم، والتقى بأساتذة الدراسات الشرقية والتاريخية والاجتماعية وناقشهم في أقوالهم وارائهم في الإسلام، كما ناقش غيرهم من الشخصيات السوفياتية فكشف لهم أخطاءهم ووضح لهم رأيه صريحاً في موقفه من الشيوعية في البلاد العربية، كما شرح لهم مواقف الشيوعيين في بلادنا من القضايا الوطنية والاجتماعية وفضح أخلاقهم وأساليبهم.. كما بين لهم شناعة الجريمة التي يرتكبها الشيوعيون المحليون في بلادنا عندما يحاربون الإسلام ويقفون جنباً إلى جنب مع الاستعمار والصهيونية وعملائهما.

---

(٦) عبدالله الطنطاوي: كتاب الشيخ مصطفى السباعي، ص٣٥.

رحلات الحج والعمرة:

قام السباعي بعدد من الرحلات إلى الحج والعمرة. . وكانت أول مرة يتجه فيها إلى الأرض المباركة سنة ١٣٦٤هـ حاجاً مؤدياً ما فرضه الله من شعائر الحج والعمرة، فروى فيها ظمأ قلبه وروحه. ولكن هذا الظمأ بقي يهيج حنينه إلى تلك الديار رغم كثرة المشاغل والأعباء حتى يسّر الله له الفرصة فزارها حاجاً للمرة الثانية عام ١٣٧١هـ. أما الزيارة الثالثة فكانت في عام ١٣٧٥هـ مع بعثة من أساتذة كلية الشريعة وطلابها في جامعة دمشق. . وزاد شوقه وحنينه إلى الديار المقدسة بعد أن أصيب بمرضه عام ١٣٧٧هـ وعانى منه ما عانى مما لا يتحمله إلا رجال من أولي العزم والصبر. . وبالرغم من شدة المرض وقسوة الآلام التي لم تكن تفارقه لحظة واحدة، فقد عزم الأمر وحزم الأمتعة وتوجه إلى المدينة المنورة في رحلة إلى الله ورسوله، وذلك قبل موسم الحج عام ١٣٨٤هـ. . ولم يمنعه المرض والألم من أداء شعائر الحج. . فكانت هذه الرحلة «حجة الوداع» التي ودع فيها الديار المقدسة قبل أن ترتفع روحه الطاهرة إلى خالقها. . فكانت رحلته الأولى مقدمة طيبة لرحلته الأخيرة. وقد كتب أخبار هذه الرحلة في كلمة بعنوان «رحلة إلى الله ورسوله». . قال فيها[7]:

«وأحب أن أعلن بهذه المناسبة أن الله أكرمني في الهامي بفكرة الحج أنواعاً من الكرامة لم يخيب فيها أملي برحمته ومعونته. .

فمن **أولها**: هيأ لي إخواناً في الله منذ ركبت الطائرة من مطار دمشق حتى عدت من الديار المقدسة، أحاطوني بعواطفهم ونبل شعورهم ومنهم من لا أعرفه من قبل ولا هو من بلدي الصغير، ولكن أخوة الإسلام ووطنه

---

(٧) مجلة حضارة الإسلام ـ العدد الثالث، عام ١٩٦٤، ص٣٠.

الكبير جعلهم يشعرون نحوي بشعور الأخ نحو أخيه أو أكثر.

ثانيها: أني قضيت في فترة أيام الحج أياماً لم أعرف مثلها خلال مرضي سبع سنوات كاملات، فلأول مرة منذ سبع سنين يهدأ الألم في دماغي وأقوى على الصلاة واقفاً على قدمي وأجلس للتشهد فيها، ولقد قدمت مكة فطفت طواف العمرة محمولاً على المحفة، ثم غادرتها وطفت طواف الوداع على قدمي.. وإني لأرجع ذلك إلى العقيدة وأثرها، وإلى بركة تلك الأماكن الطاهرة المقدسة.

ثالثاً: إن الله تعالى أكرمني بزوال آثار بعض الأمراض التي كنت أعالج منها بالحمية كمرض السكر. ولكني منذ وصلت المدينة المنورة حرصت على أن أتصبح كل يوم بسبع تمرات من تمرها إيماناً مني بالحديث الصحيح «من اصطبح كل يوم بسبع تمرات ـ وفي رواية من تمر المدينة ـ لم يضره في ذلك اليوم سم ولا داء». وقد جربت الطب النبوي بنفسي وتحققت صحة الحديث الوارد في التمر. وطب النبوة إنما ينتفع به من تلقاه بالقبول واعتقاد الشفاء به وكمال التلقي له بالإيمان والإذعان.

وكان السباعي رحمه الله كلما اشتدت به الآلام استغاث بالله جل شأنه بمناجاة صادقة، أو قصيدة يلتجىء فيها إلى الله ورحمته الواسعة ويذكر فيها رسوله ﷺ ومعجزاته في شفاء المرضى، ومن تلك القصائد قصيدته التي مطلعها:

يا سائق الظعن نحو البيت والحرم ... ونحو طيبة تبغي سيد الأمم

وله كلمات طيبة ومناجاة لله سبحانه، ورد الكثير منها في كتابه «هكذا علمتني الحياة»، وهي تبين ما في نفسه من خالص الحب، وصفاء الودّ، وعظيم الشوق، وإعلان الطاعة للخالق جلّ وعلا.

الفصل السادس

نشاطه في مجال العلم والبحث والأدب

- حركته الفكرية
- موسوعة الفقه الإسلامي
- نشاطه في ميدان الصحافة
- مؤلفاته وإنتاجه العلمي
- رأي السباعي في الشيعة
- السباعي رجل الحكمة
- السباعي الشاعر
- مكتبة الدكتور السباعي

حركته الفكرية:

الدكتور السباعي رائد فكر وقائد دعوة.. كان رحمه الله موسوعة فقهية واعية وعقلية نيّرة أنتجت مئات الأبحاث، وعشرات الكتب في مختلف الموضوعات الفقهية والفكرية، وزوّد المكتبة الإسلامية بثروة ضخمة وإنتاج متميز..

يقول عنه الدكتور صبحي الصالح[1]: «عرفت السباعي المفكر، والمفكر الانسان، والانسان الواعي، وآنست من سعة أفقه، ورجاحة عقله، ومنهجية بحثه، ونظرته الموضوعية الشاملة إلى علوم الشريعة وحقائق الوجود ما أكبره في عيني، وأعظمه في نفسي وزاده لعمري هيبة، وكمالاً..

إن حيوية السباعي المتكافئة مع أحداث العصر أنشأت لجيلنا الحاضر حركة فكرية أستطيع أن أسميها «حركة الوعي الديني» الذي ينظم ولا يرتجل، ويتأنى ولا يستعجل، ويضع الحلول لكل نازلة ولا يخضع للظروف القاهرة، ويسمو بالإسلام فوق جميع الاعتبارات ولا يتملق به اندفاعة الجماهير ولا سطوة الحكام، ويصطفي للقيادة والتوجيه رجال الفكر النير والمنطق السليم لا رجال الخرافة والأسطورة مهما يؤتوا من المظاهر الجوف، وأياً ما يلبسوا من مسوح الدجل والنفاق!.

---

(١) د. صبحي الصالح: مجلة حضارة الإسلام، الأعداد ٤، ٥، ٦، عام ١٩٦٤، ص١٦٧.

كان السباعي عدو الخرافة الأول في هذا الجيل، حاربها باليد والقلم واللسان وبكل ما وهبه الله من حيوية في البيوت والأسواق، وفي المساجد والجامعات. . حارب الخرافة في البيت إذ كان يريد أن يحيط البيت الإسلامي بضمانات التوازن الاجتماعي روحياً وقانونياً واقتصادياً، ويود أن تكون المرأة المسلمة في خليتها الاجتماعية العظمى جزءاً متمماً للرجل، لأنها مخلوقة من نفسه فلا بد أن ترتبط ارتباطاً مقدساً ليس فيه إلا الحب والمودة، والرحمة والحنان، وأصح مثال على ذلك كتابه «المرأة بين الفقه والقانون».

وحارب الخرافة في السوق حين قاوم جشع التجار المحتكرين، وأطلعهم على جوانب من التعاون الاقتصادي الإسلامي فيما سمّاه «اشتراكية الإسلام».

وحارب الخرافة في المسجد حين خاطب الناس على قدر عقولهم، مترفعاً بهم فوق اعتبارات السياسة أياً كان لونها، يبصرهم بأسرار الفقه وحكم التشريع، ويحملهم رسالة الإسلام الخالدة، ويبعثهم من مرقدهم إلى الواقع المرير.

وفي رحاب المدرسة ـ ولاسيما في حرم الجامعة ـ ظهرت حربه للخرافة أقوى ما تكون، فلما وسّدت إليه عمادة كلية الشريعة بجامعة دمشق جعل من تلك الكلية مصنعاً للرجال، فما يتخرج منها حتى اليوم إلا العالم الحق ذو البصيرة النيرة والفكر الحر الذي يتقي الله في علمه وعمله، ويستحيي من ربه أن يراه في موطن سوء، وأنشأ في تلك الكلية أعظم عمل إسلامي إذا قدّر له التمام عرف الناس قيمته العلمية الحقيقية: ألا وهو مشروع موسوعة الفقه الإسلامي.

وكأنما أراد الله أن تكون باكورة عمله العلمي إرهاصاً للمدرسة الفكرية الواعية التي يسّر لإنشائها في المجتمع الإسلامي، فقد كانت «السنة ومكانتها في التشريع» هي الرسالة التي تقدم بها رحمه الله لنيل الشهادة العالمية في جامعة الأزهر الشريف، وفيها يبدو السباعي قمة شامخة بين قمم الفكر الموضوعي الرصين، إذ ردّ على بعض المستشرقين ومقلديهم فأفحمهم في كل ما أثاروه من شبهات حول صحة الحديث النبوي وحجيته وصدق جامعيه ورواته من أعلام الصحابة والتابعين وأئمة الإسلام الخالدين».

لقد كان السباعي رحمه الله شديد التحسس لأمراض مجتمعه مدركاً لكبرى مشكلاته متابعاً بعقله وقلبه لأهم قضاياه السياسية والاجتماعية. وكان وعيه الاجتماعي يزداد مع الأيام قوة وعمقاً وفهماً واستيعاباً. . لقد كان يتحسس أشد التحسس ما يتهدد المجتمع الإسلامي في بلادنا العربية وفي غيرها من غزو عقائدي وما يدور في البيئات المثقفة وفي غيرها أحياناً من شبه حول الإسلام ومن افتراءات وتشويهات دسها المستعمرون الأعداء، وكان يبصر ويشعر بمرارة ما ران على هذا المجتمع منذ عصور من مظالم اجتماعية تتحمل وطأتها الكثرة الكاثرة من جماهير الشعب الساذج. . فارتسمت في ذهنه وفي نفسه صورة واضحة لكبرى مشكلاتنا الفكرية والاجتماعية والسياسية فانطلق يعالجها بثقافته الإسلامية العميقة الواسعة، وحسن فقهه للدّين، وبحسّه المرهف وإخلاصه الشديد وعمله الدائب وجهاده المستمر، في الميادين الاجتماعية والسياسية والفكرية.

موسوعة الفقه الإسلامي:

كان السباعي رحمه الله طاقة جبارة لا تعرف الوقوف عند حد. . ولا

تعرف الاكتفاء بالعمل في ميدان واحد، فكان أمّة حيّة، دائبة النشاط والحركة والتوثب، والتطلع إلى أكبر الأهداف، وأسمى الغايات، فهو لم يكتف بتأسيس كلية الشريعة في الجامعة، وإنما كان يهدف لإحياء التراث الفقهي الإسلامي العظيم، وبعثه في قالب جديد، يلائم التطورات الاجتماعية والتشريعية الحديثة، فعمل ـ بالتعاون مع إخوانه الذين شاركوه في تأسيس كلية الشريعة ـ على إنشاء موسوعة للفقه الإسلامي تهدف إلى إحيائه وصياغته صياغة جديدة، وتبويبه وتصنيفه، على أحدث الأساليب المتبعة في أرقى الموسوعات العلمية والقانونية في العالم، لتكون مرجعاً لكل فقيه وعالم، ولتلبي حاجة التشريع، عندما تتهيأ الظروف لإقامة كافة تشريعات البلاد على أساس الإسلام . . وتعد هذه الموسوعة معجماً ضخماً أو دائرة معارف تضم في أجزائها العديدة أدق المعلومات الفقهية عن النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية في الإسلام . .

وتحقيقاً لذلك ركب السباعي كل صعب، وبذل كل جهد، حتى أخرج المشروع إلى حيز الوجود . . وكان أول رئيس لهذه الموسوعة، التي جمعت خيرة العناصر العلمية والفقهية والقانونية في الجامعة، وباشرت عملها الكبير، ليحقق الغاية التي أنشئت الموسوعة من أجلها .

نشاطه في ميدان الصحافة :

لقد أدرك السباعي رحمه الله أهمية الصحافة كسلاح فعّال في يد الفكرة الإسلامية تستخدمه في توجيه وقيادة الرأي العام وتوعية الجماهير بأهدافها، فأنشأ لذلك جريدة «المنار» من ١٩٤٧ إلى ١٩٤٩ أي إلى قيام انقلاب حسني الزعيم الذي أوقفها، وظلت كذلك إلى أن تملك امتيازها الأستاذ بشير العوف الذي استأنف إصدارها باسمه كجريدة سياسية مستقلة .

وفي عام ١٩٥٥ وبعد أن عادت الأوضاع الشرعية والدستورية للبلاد. عاد السباعي إلى ميدان الصحافة من جديد، فأسس مع إخوانه جريدة «الشهاب» السياسية الإسلامية الأسبوعية، وكان المشرف على تحريرها وسياستها العامة، وقد استمر صدورها حتى قيام الوحدة مع مصر عام ١٩٥٨ وتوقفت بعدها عن الصدور، بعد أن قامت بواجبها نحو قضايا الأمة العربية والإسلامية وقضايا الشعب السوري خلال أكثر من ثلاث سنوات خير قيام. وكان للسباعي فيها مقالات وبحوث روحية وفكرية واجتماعية وتاريخية وسياسية رائعة[٢].

وفي نفس العام ١٩٥٥ حصل الدكتور السباعي على امتياز بإصدار مجلة «المسلمون» بعد أن توقفت في مصر، وسار فيها على نفس الخطة التي عرفت لها من قبل، وظل رئيساً لتحريرها إلى سنة ١٩٥٨ حيث رأى تغيير اسم المجلة وتجديدها، فاختار لها إسم «حضارة الإسلام» الشهرية، التي أعطاها من جهده وفكره ما جعلها تشق طريقها بقوة ومضاء. ولقد أراد أن يجعل من هذه المجلة مدرسة للفكر الإسلامي الأصيل، توضح معالم الطريق، وتوحد مناهج التفكير، وتعكس حقيقة الإسلام الناصعة في صورة مشرقة واضحة.. كل ذلك بأسلوب مرن جذاب بعيد عن تعصب المتعصبين وجمود الجامدين، ودون حيدة عن طريق الحق وروح الشريعة الخالدة.

وظل السباعي قائماً على هذه المجلة حتى توفاه الله.. ثم واصلت الحضارة صدورها وجهادها في خدمة الإسلام، برئاسة الدكتور محمد

---

(٢) فتحي يكن: الموسوعة الحركية، ص١٤٦.
وهاني طايع.. مقابلة في ١٩٩٣/١٢/٢١.

أديب الصالح حتى توقفت في أوائل الثمانينات.

ولقد كانت الصحافة من الركائز الهامة التي أحسن السباعي استخدامها في معركة الدستور، فعن طريق «المنار» - جريدة الدعوة يومئذ - كان يحرك الجماهير بالكشف عن محاذير المسلك غير الإسلامي، وبافتتاحياته البليغة بل الساحرة كان يناقش المساندين لتجريد الدستور من اللون الإسلامي، باسم العلوم الدستورية، فيرد بالحجج القانونية التي ترد دعاواهم الباطلة التي توهم الجاهلين وأنصاف المتعلمين بصحة مزاعمهم، فتأتي هذه الافتتاحيات لتحيل ما بنوه في الهواء هباء منثوراً، وتستقطب كل يوم أفواجاً من المؤيدين للاتجاه الإسلامي، بعد أن كانوا من المعارضين له، أو المترددين بشأنه.

ولم يقف نشاطه الصحفي عند معركة الدستور وحدها، بل استمر مرافقاً له حتى اللحظات الأخيرة من حياته، إذ كان موقناً بأن الصحافة - إلى جانب المدرسة - أفعل الوسائل في الإصلاح والإفساد، وإذن فلا بد للفكر الإسلامي من صحافة تدافع وتهاجم وتنشر الوعي بين الجماهير، التي هي هدف التيارات الهدامة جميعاً، ويجب أن تكون قاعدة أساسية لكل عمل إسلامي صحيح[٣].

مؤلفاته وإنتاجه العلمي:

كان الدكتور السباعي موسوعة فقهية واعية وعقلية نيّرة انتجت مئات الأبحاث، وما يزيد على عشرين كتاباً[٤] في مختلف الموضوعات الفقهية والفكرية، وقد زوّد المكتبة الإسلامية بثروة ضخمة وانتاج يتميزعن كثير

---

(٣) محمد المجذوب: علماء ومفكرون عرفته، ص٣٩٨.

(٤) الزركلي: الأعلام جـ٧، ص٢٣٢.

مما يؤلف ويكتب . . فهو عصارة تجريبية لعالم واسع الثقافة، وداعية عرف المجتمع ومشكلاته، فكتب عن علم وخبرة وتجربة وتفكير عميق . . ومن أهم هذه الكتب:

١ - «شرح قانون الأحوال الشخصية» . . ويعتبر هذا الكتاب موسوعة علمية في موضوعه، ويتكون من ثلاثة أجزاء: الجزء الأول منها في أحكام الزواج. والجزء الثاني في أحكام الأهلية والوصية. والجزء الثالث في أحكام المواريث(٥).

وقد امتاز كتابه هذا بجودة العرض وإحكام البناء، ودقة البيان، كما امتاز بروح موضوعية متجردة نزيهة، بأسلوب عصري جذاب.

٢ - «من روائع حضارتنا» . . وهو خلاصة لأجمل ما في تاريخنا من منازع إنسانية وسمو أخلاقي ومؤسسات حضارية . . تحدث فيه السباعي عن الآثار الخالدة لحضارتنا في العقيدة والدين، والفلسفة والعلوم، واللغة والأدب، والتشريع، ومفهوم الدولة وعلاقة الشعب بالحكومة . . كما تحدث فيه عن إفلاس الحضارة الغربية التي سقطت في مستنقع النفعية والوثنية.

٣ - «المرأة بين الفقه والقانون» . . وهو محاضرات ألقاها على طلاب كلية الشريعة ثم جمعت في كتاب، تحدث فيه عن تطور حقوق المرأة عبر التاريخ، وعن المرأة في الحضارة الغربية. وتحدث عن وضع المرأة المسلمة عبر التاريخ، وعن الأحوال الشخصية والحقوق السياسية للمرأة.

٤ - «عظماؤنا في التاريخ» . . وهو دراسة للشخصيات الإسلامية لفهم الدروس المستفادة من سيرتها . . تحدث فيه الأستاذ السباعي عن النبي

---

(٥) عبدالعزيز الحاج مصطفى: كتاب مصطفى السباعي رجل فكر . . ، ص٦٠.

ﷺ، وعن نواحي الكمال المطلق في شخصه الكريم، الذي نستمد منه كل نواحي العظمة والقدوة الكاملة. وتحدث عن الخلفاء الأربعة، وأظهر أهم نواحي عظمة كل واحد منهم، كما تحدث عن عدد من الصحابة، الذين استمدوا عظمتهم من نبي الإنسانية عليه صلوات الله وسلامه. وحمل الجميع على التأسي بسيرة هؤلاء العظماء الذين لم يشهد لهم تاريخ الانسانية مثيلاً من قبل.

٥ ـ «القلائد من فرائد الفوائد».. وهو عبارة عن كلمات اختارها لمجلة الحضارة، مما قرأ وطالع، لأن الجيل المسلم في حاجة إلى هذه المعرفة من العلوم والآداب واللغة والتاريخ. ثم جمعها في هذا الكتاب.

٦ ـ «دروس في دعوة الإخوان».. هذا الكتاب دروس لشباب الدعوة ليتربوا عليها، ويكونوا على بيّنة بمهام دعوتهم وأهدافها.

٧ ـ «السُّنة ومكانتها في التشريع».. هذا الكتاب ألفه السباعي أطروحة للدكتوراه ونال به شهادة الأستاذية من الأزهر[٦]، وخاض فيه الميدان دفاعاً عن دعوة الإسلام وشريعته.. وقد توافرت له القدرة على البحث العلمي وتتبع الأمور في مظانها، بجانب الغيرة الصادقة على دين الله.. إن هذا الكتاب صورة حية لهتين المكرمتين، فنجد فيه أن المضمون منطبق تمام الانطباق على العنوان.. وقد ردّ فيه على بعض المستشرقين ومقلديهم فأفحمهم في كل ما أثاروه من شبهات حول صحة الحديث النبوي وحجيته وصدق جامعيه ورواته..

وبطريقة منهجية جامعة فنّد آراء المخالفين قديماً وحديثاً، كما ردّ

---

(٦) محمد المبارك: مجلة حضارة الإسلام ـ الأعداد ٤، ٥، ٦، عام ١٩٦٤، ص١٨.

على شبه المعتزلة والرافضة والمستشرقين وتلامذتهم من العرب المنحرفين أمثال «أبي ريّه». . وكشف بالروح العلمية المنصفة مواقعهم وما وراء اتجاهاتهم من جهل وتزوير، فكان موقفه في ذلك كله موقف العالم الداعية المجاهد، الذي يقدم لك الفكرة، مؤيداً ما يجنح إليه بالحجة. . ونلمس من بحثه الغيرة الصادقة على السنة أن يعدى عليها باسم العلم وتحت عناوين المعرفة.

وقد أصبح هذا الكتاب من أهم المراجع العلمية في موضوعه، ومن أمضى الأسلحة في الدفاع عن السّنة ومكانتها في التشريع الإسلامي لكل باحث وعالم وطالب علم.

٨ - «هكذا علمتني الحياة». . يتكون هذا الكتاب من ثلاثة أجزاء، وهو عبارة عن خواطر بدأ الدكتور السباعي كتابتها وهو في مستشفى المواساة بدمشق عام ١٣٨١هـ، ١٩٦٢م. . فجاءت صورة صادقة عن تفكيره خلال بضعة شهور قضاها منقطعاً عن الناس ما بين المستشفى والبيت. . وهذه الخواطر هي خلاصة تجاربه في الحياة. . فالحكم التي ضمّنها هذا الكتاب القيم حكم عملية واقعية عاشها الشيخ السباعي، بكل جوارحه وأحاسيسه وآلامه وآماله. .

إن هذا الكتاب يمثل عصارة الفكر والروح في كل حكمة من حكمه وكلمة من كلماته وحرف من حروفه، لأنك تقرأ تحت ذلك كله تاريخاً حافلاً من العمل الدائب، والعاطفة المشبوبة، والشجاعة المفرطة، والرجولة المستعلية، والتجربة الصادقة، والصبر الجميل.

٩ - «اشتراكية الإسلام». . وهو محاضرات ألقيت على طلاب الشريعة في جامعة دمشق ثم جمعت في كتاب. وقد استغلت بعض

الجهات هذا الكتاب، فطبع منه في مصر - أيام عبدالناصر - مئات الآلاف من النسخ، ووزع على القوات المسلحة، وفي مختلف الأوساط، وأطلقوا لإذاعتهم العنان تقتطف منه ما يتفق مع أهواء الحكام. وقد أثار هذا الاستغلال سخط المؤلف في حينه، فوجّه إلى القائمين به تقريعاً لاذعاً قرأه الألوف في الصحف السورية. .

يقول الشيخ محمد المجذوب عن الكتاب[٧]: «إن قارىء الكتاب في روية وتجرد لا يجد أي صلة بين مضمونه وأي من المذاهب الاشتراكية المعروفة في العالم، وليس له صلة بالاشتراكية خارج نطاق العنوان، الذي كان ضرباً من المشاكلة اللفظية. وإنما اختار له ذلك العنوان اجتذاباً لأذهان الجيل، الذي زينت له الاشتراكية حتى باتت في نظره هي الحلم السعيد، فكل حديث عن عدالة الإسلام وتفوقه على المحاولات البشرية، كان لا يجد أذناً مصغية إذا لم يحمل إشارة إلى ذلك الإطار السحري. . أما مضمون الكتاب فبحث علمي في الحياة الانسانية، وما يحيط بها من مشكلات للفرد والمجتمع، وما أنزل الله من الحلول لكل معضلة منها، على الوجه الضامن للتوازن، المحقق للمصلحة والأمن، وعلى صورة من الدقة لا تحلم ببعضها عقول المفكرين في سائر العصور، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً.

والسباعي في كتابه هذا يعالج الأوضاع البشرية على ضوء الشريعة الإسلامية بعقلية العالم المجتهد الذي يحاول استنباط الحل من منابع الوحي دون تعصب لمذهب بعينه، وينقب في صفحات التاريخ عن المثل التطبيقية التي برز هذا الحل من خلالها، وما أحسب ناقداً بقادر على أن

---

(٧) محمد المجذوب: علماء ومفكرون عرفتهم، ص٤٠٦.

يدل على حكم واحد قال به المؤلف لا يعتمد فيه على أصل من الكتاب أو السنة أو التطبيق السليم من عصور السيادة الشرعية، وقولنا هذا لا يعني أننا ندعي له العصمة من الخطأ، بل نقول بأن كل خطأ صدر منه في أثناء ذلك لا يعدو حدود الاجتهاد، الذي يؤجر صاحبه على كل حال إن شاء الله. ولعل أكبر أخطائه تلك يتمثل في العنوان الذي وجد فيه المضللون كل مسوغات الاستغلال».

ولقد تعرض كتاب «اشتراكية الإسلام» للنقد وخاصة «عنوان الكتاب»، وصدرت ردود عليه، منها ردّ الشيخ الجليل محمد الحامد.

السباعي.. والشيخ الحامد: كان السباعي رحمه الله صديقا للشيخ محمد الحامد وكانا متحابين في الله عز وجل، وقد سكنا معاً في أثناء فترة الدراسة في الأزهر الشريف. وكان للسباعي مسامرات ومحاورات تفيض ذوقاً وعذوبة نفس مع صديقه الصفي الشيخ الحامد.. قال له مرة على أثر نكتة ألقاها الحامد: يا شيخ محمد لولا هذه النكت البديعة التي تلقيها لما كنت تطاق! إذ كان عندْ الشيخ الحامد شدة في الحق[٨].

ولما كتب الشيخ السباعي كتابه «اشتراكية الإسلام» أحدث ضجة واستغله دعاة الاشتراكية فأخذوا يقرؤونه من الاذاعة.. وكتب الشيخ الحامد رداً على الكتاب أرسله مع بعض تلاميذه للشيخ السباعي، وقد التزم مع أخيه الأدب وكان يعلم منه الاخلاص والعلم، ثم نشر الرد في كتاب «نظرات في كتاب اشتراكية الإسلام». وكان في رده في غاية الأدب والرفق مع قول الحق والدفاع عنه[٩].

---

(٨) الشيخ عبدالحميد الأحدب.. مقابلة معه في ١٢/٢/١٩٩٤.

(٩) د. محمد أديب الصالح: مجلة حضارة ابلاسلام - الأعداد ٤، ٥، ٦، عام ١٩٦٤ ص١٠٨.

وللسباعي مجموعة كتب أخرى، هي :

١٠ ـ أخلاقنا الاجتماعية ١١ ـ أحكام الصيام وفلسفته.

١٢ ـ الدين والدولة في الإسلام ١٣ ـ نظام السلم والحرب في الإسلام.

١٤ ـ هذا هو الإسلام ١ ـ ٢ ١٥ ـ السيرة النبوية دروس وعبر.

١٦ ـ الاستشراق والمستشرقون ١٧ ـ المرونة والتطور في التشريع الإسلامي.

١٨ ـ منهجنا في الإصلاح ١٩ ـ العلاقات بين المسلمين والمسيحيين في التاريخ.

وقد طُبعت كتب الدكتور السباعي عشرات المرات، وانتشرت في بلدان كثيرة من عالمنا العربي والإسلامي، وهي تعتبر من أهم المراجع لطلاب وأساتذة الجامعات وغيرهم من طلاب العلم.

ولا بد هنا من الإشارة إلى أن فترة مرضه رحمه الله كانت من أخصب أيام حياته وأكثرها إنتاجاً من الناحية العلمية، وبركة في عمله العلمي.. فكانت هي فترة التأليف التي خرجت فيها أكثر تآليفه من خلال تلك السنين التي أثقله فيها المرض. وقد واصل الكتابة حتى آخر يوم في حياته.. يقول الدكتور محمد أديب الصالح : «كان رحمه الله حريصاً كما علمت منه قبل وفاته بيوم واحد على كتابة مؤلفات ثلاث، هي : العلماء الأولياء، والعلماء المجاهدون، والعلماء الشهداء».

رأي السباعي في الشيعة :

للسباعي رأي مبكّر بالشيعة، مبني على الاطلاع والمعرفة واللقاء والممارسة. فقد ناقش آراء الشيعة والفرق الإسلامية الأخرى، في بحث طويل قارن فيه بين آرائهم وآراء السّنة.. وفنّد هذه الآراء في كتابه القيم

«السّنة ومكانتها في التشريع» . . وكان مما قاله[١٠] :

بعد وفاة الرسول ﷺ حدث خلاف بين الصحابة فيمن يتولى الخلافة . . ولو بقي الخلاف محصوراً بينهم لبقي مطبوعاً بطابعهم من حسن الأدب واحترام الصحبة . . ولكن دسائس خصوم الإسلام في هذه المعارك الخلافية ، أضاف إلى تاريخ هؤلاء الصحابة كلاماً لم يقله بعضهم في حق بعض . ووجدت هذه النقول المكذوبة آذاناً صاغية عند جمهور الشيعة ، بل إن أول من تطاول على الصحابة وملأ المجالس بالأحاديث المكذوبة عليهم وفي حق عليّ وفضله ، هم الشيعة باعتراف المحققين . . فجمهور طوائف الشيعة ـ ونعني بهم من ظلوا في دائرة الإسلام ـ يجرحون أبا بكر وعمر وعثمان ومن شايعهم من جمهور الصحابة ، ويجرحون عائشة وطلحة والزبير ومعاوية وعمرو بن العاص ومن انغمس معهم في اغتصاب الخلافة من علي ، وبالأحرى إنهم يجرحون جمهور الصحابة إلا نفراً ممن عرفوا بولائهم لعليّ رضي الله عنه . . والقاعدة العامة عندهم أن من لم يوال عليّاً فقد خان وصية الرسول ، ونازع أئمة الحق ، فليس أهلاً للثقة والاعتماد . . وقد خالف جمهور الشيعة في هذا الرأي فريق منهم ، وهم الزيدية القائلون بتفضيل عليّ على أبي بكر وعمر ، مع الاعتقاد بصحة خلافتهما والإشادة بفضلهما .

أما جمهور المسلمين فقد حكموا بعدالة الصحابة جميعاً ، سواء منهم من كان قبل الفتنة أو بعدها ، وسواء منهم من انغمس فيها أو جانبها ، ويقبلون رواية العدول الثقات عنهم .

وكان من آثار هذا الاختلاف في النظر إلى الصحابة أن هوجمت السّنة

(١٠) د. مصطفى السباعي : السنة ومكانتها في التشريع ، ص١٣٠ .

التي جمعها الجمهور وحقّقها أئمتهم ونقادهم، منذ عصر الصحابة حتى عصر الجمع والتدوين، من قِبل الشيعة التي وصمت أحاديث الجمهور بالكذب والوضع وخاصة ما كان منها في فضائل الصحابة الذين يخاصمهم جمهور الشيعة، ولم يقبلوا من أحاديث أهل السنة إلا ما وافق أحاديثهم التي يروونها عن أئمتهم المعصومين في نظرهم، وبذلك حكموا على أحاديث بالوضع هي عند الجمهور من أرقى طبقات الصحيح.

وقد انغمس الشيعة في رذيلة الكذب على رسول الله ﷺ، فوضعوا أحاديث تخدم (مذهبهم) مثل حديث (غديرخم)، كما بدّلوا ألفاظ بعض الأحاديث.

كما بيّن السباعي أثر آراء الشيعة في تعميق الخلاف فقال[11]:

إن السّنة الصحيحة لقيت من عنت الشيعة والخوارج عناء كبيراً، وكان لآرائهم الجامحة في الصحابة أثر كبير في اختلاف الآراء والأحكام في الفقه الإسلامي، وفيما أُثير حول السنة من شُبه. وما زالت آراء الشيعة في الصحابة تثير الفتن حتى أيامنا هذه. فالشيعة وقفوا من صحابة رسول الله ﷺ موقف العداء والبغض الذم، ووصل الأمر بأكثر فرقهم إلى تكفير جمهور الصحابة بما فيهم أبو بكر وعمر وسعد وخالد وغيرهم. وهم يبغضون كل من لم يسلم لعلي رضي الله عنه بإمارة المؤمنين بعد وفاة رسول الله ﷺ.

وقد اتصل السباعي بعدد من علماء الشيعة في لبنان وغيرها وناقشهم وحاول التقريب وإزالة أسباب الفرقة، وهو يقول:

إن السبب الذي بدأت به الفرقة ـ بين السّنة والشيعة ـ هو النزاع حول

---

(١١) د. مصطفى السباعي: السنة ومكانتها في التشريع، ص٨، ص٣٦٠.

الأحق بالخلافة ورئاسة الدولة، ولم يعد هذا موجوداً في عصرنا الحاضر، فقد أصبحنا جميعاً تحت سلطة المستعمرين، فلم يبق لنا ملك نتقاتل عليه، ولا خلافة نختلف من أجلها، وذلك ما يقتضي جمع الشمل وتقريب وجهات النظر، وتوحيد كلمة المسلمين على أمر سواء، وإعادة النظر في كل ما خلفته تلك المعارك من أحاديث مكذوبة على صحابة رسول الله وأصفيائه، وحملة شرعه وحاملي لوائه.

وقد بدأ علماء الفريقين في الحاضر يستجيبون إلى رغبة جماهير المسلمين في التقارب، ودعوة مفكريهم إلى التصافي، وأخذ علماء السنة بالتقريب عملياً، فاتجهوا إلى دراسة فقه الشيعة ومقارنته بالمذاهب المعتبرة عند الجهور، وقد أدخلت هذه الدراسة المقارنة في مناهج الدراسة في الكليات وفي كتب المؤلفين في الفقه الإسلامي.. وإنني شخصياً - منذ بدأت التدريس في الجامعة - أسير على هذا النهج في دروسي ومؤلفاتي.

ولكن الواقع أن أكثر علماء الشيعة لم يفعلوا شيئاً عملياً حتى الآن، وكل ما فعلوه جملة من المجاملة في الندوات والمجالس، مع استمرار كثير منهم في سب الصحابة وإساءة الظن بهم، واعتقاد كل ما يروى من كتب أسلافهم من تلك الروايات والأخبار، بل إن بعضهم يفعل خلاف ما يقول في موضوع التقريب، فبينما هو يتحمس في موضوع التقريب بين السنة والشيعة، إذا هو يصدر الكتب المليئة بالطعن في حق الصحابة أو بعضهم ممن هم موضع الحب والتقدير من جمهور أهل السنة.

ولا يزال القوم مصرين على ما في كتبهم من ذلك الطعن الجارح والتصوير المكذوب لما كان بين الصحابة من خلاف، كأن المقصود من دعوة التقريب هي تقريب أهل السنة إلى مذهب الشيعة، لا تقريب

المذهبين كل منهما إلى الآخر.

وهناك كتب لعلماء الشيعة تطبع في العراق وإيران، وفيها من التشنيع على عائشة أم المؤمنين وعلى جمهور الصحابة ما لا يحتمل سماعه إنسان ذو وجدان وضمير، مما يذكّر الناس بآثار الماضي ويؤجج نيران التفرقة من جديد.

وقد وجّه الدكتور السباعي دعوة إلى المخلصين من علماء الشيعة، وفيهم الواعون الراغبون في جمع كلمة المسلمين، ليواجه الجميع المشاكل التي يعانيها العالم الإسلامي اليوم، من انتشار الدعوات الهدامة، التي تجتث جذور العقيدة من قلوب شباب السّنة وشباب الشيعة على السواء.

وكرّر السباعي دعوته بوضع أسس التقارب الصحيح العملي لا القولي.. وفي مقدمة ذلك الاتفاق على تقدير صحابة رسول الله ﷺ الذين على أيديهم انتقل هذا الدين إلينا، وبواسطتهم أخرجنا الله من الظلمات إلى النور.

السباعي رجل الحكمة:

كان السباعي شخصية لامعة جامعة.. وكان طاقة جبارة من النشاط المتوقد الذي لا يعرف الملل ولا الفتور.. فليس غريباً أن يخوض الميادين المختلفة، وينجح ويتفوق في كل هذه الميادين.

كان رحمه الله عذب النفس، رقيق الحاشية، مرهف الذوق.. حباه الله موهبة كريمة، وفطرة سليمة، فغذاها بالعلم وزكاها بالفضائل..

كان صاحب رأي سديد وفكر مستنير وعقلية متفتحة، تنطق بالحكمة وبالموعظة الحسنة.

دوّن الكثير من أفكاره وخواطره وتجاربه في كتاب سمّاه «هكذا علمتني الحياة»، وقرأ الكتاب كثير من الناس، فلم يختلف في روعته وسداده قارئان . .

يقول السباعي في مقدمة هذا الكتاب[١٢]: «إن هذه الخواطر هي خلاصة تجاربي في الحياة، لم أنقل شيئاً منها من كتاب، ولا استعنت فيها بآراء غيري من الناس، وأعتقد أن من حق الجيل الذي يأتي بعدنا أن يطلع على تجاربنا، وأن يستفيد من خبرتنا إذا وجد فيها ما يفيد، وهذا خير ما نقدمه له من هدية، إننا لا نستطيع أن نملي عليه آراءنا إملاء، وليس ذلك من حقنا، وإنما نستطيع أن نقدم له النصح والموعظة، وخير النصح ما أعطته الحياة نفسها وأبلغ الموعظة ما اتصل بتجارب الحياة ذاتها. والناس وإن اختلفت مشاربهم وعقولهم وطباعهم، فإنهم يلتقون على كثير من حقائق الحياة، ويجتمعون على كثير من الرغبات والحاجات والأهداف.

وإني إنما أقدم هذه التجارب لمن عاش في مثل تفكيرنا وأهدافنا ومطامحنا ومقاييسنا فهؤلاء الذين ينتفعون بها، أما الذين يخالفوننا في العقيدة أو الاتجاه قلّ أن يستفيدوا منها، ولا أعتقد أنهم يستطيعون الصبر على كثير مما جاء فيها من خواطر وأفكار، فمن أجل أولئك نشرت ما كتبت. أما هؤلاء المخالفون لنا في الاتجاه والنظرة إلى حقائق الحياة ومشكلاتها، فكل ما أرجو أن يستمعوا إليه، وأن يقرؤوه على أنه يمثل وجهة نظر في مشاكل مجتمعنا الذي نعيش فيه، ولا سبيل إلى انصاف مخالفك في الرأي إلا أن تستمع إليه وترى ما عنده، فقد تجد فيما تسمع إن كنت طالباً للحق ـ بعض الصواب الذي كنت تظنه خطأ وبعض الحق الذي كنت تراه باطلاً.

---

(١٢) د. مصطفى السباعي: هكذا علمتني الحياة، ص٥.

إنني لست في هذه الخواطر فيلسوفاً ولا حكيماً ولا مفكراً بعيد الغور في الـوصـول إلى الحقـائق، ولكنني صاحب تجارب عملية في الحياة استغرقت من عمري أكثر من ربع قرن، وقد أحببت نقلها إلى من ينتفعون بما نكتب ويتأثرون بخطانا فيما نفكر، وليس يهمني أن أبدو في نظرهم متفلسفاً، أو أديباً متأنفاً، وإنما يهمني أن أبدو لهم أخاً مرشداً ناصحاً يقول ما يفهمون، ولا يعنتهم في تدبر ما يقرؤون».

مختارات من حكمه ومواعظه[١٣]:

«من أمراض هذه الحضارة»

١ ـ من مفاسد هذه الحضارة أنها تسمّي الاحتيال ذكاء، والانحلال حرية، والرذيلة فناً، والاستغلال معونة.

«خرافة الشعارات»

٢١ ـ من أكبر الخرافات التي تروّج في عصرنا الحاضر أن تسمّىٰ دكتاتورية الحكم بالديمقراطية، وإفقار الشعب بالاشتراكية، وانحلال الأخلاق بالتقدّمية.

«ميادين الاختبار»

٥٧ ـ في المـآزق ينكشف لؤم الطباع، وفي الفتن تنكشف أصالة الرأي، وفي الحكم ينكشف زيف الأخلاق، وفي المال تنكشف دعوى الورع، وفي الجاه ينكشف كرم الأصل، وفي الشدة ينكشف صدق الأخوّة.

---

(١٣) تم تسجيل هذه المختارات بأرقامها التي وردت في كتاب «هكذا علمتني الحياة».

«الاستقامة»

٧١ - الاستقامة طريق أولها الكرامة، وأوسطها السلامة، وآخرها الجنة.

«حين تخلو الساحة»

١٥٩ - حين تخلو الساحة من الأبطال، يتمنطق بالسلاح كل جبان خوار. . وحين تخلو من الزعماء، يتصدى للقيادة كل سفيه غرير. . وحين تخلو من الأمناء، يتظاهر بالوفاء كل خوان حقير. . وحين تخلو من الحكماء، يدعي الفلسفة كل جاهل مغرور. . وحين تخلو من المجاهرين بالحق، يصول فيها كل طاغية لئيم.

«للنجاح في معترك السياسة»

٢٠٢ - سلامة القلب، ونظافة اليد، وصحة العقيدة، واستقامة الأخلاق. . لا تكفي وحدها للنجاح في معترك السياسة، ما لم يضف إليها ألمعية الذهن، ومرونة العمل، وحرارة الروح، وتفهم مشكلات المجتمع وطبائع الناس.

«أساس نكبة أمتنا»

٢٠٤ - أساس نكبة أمتنا في القديم والحديث: حكامها الظالمون، وأذكياؤها المنافقون، وعلماؤها الغافلون.

«حوار مع السعادة»

٥٢٠ - قيل للسعادة أين تسكنين؟ قالت: في قلوب الراضين.

قيل: فبِمَ تتغذين؟ قالت: من قوة إيمانهم.

قيل: فبِمَ تدومين؟ قالت: بحسن تدبيرهم.

قيل: فبِمَ تُستجلبين؟	قالت: أن تعلم النفس أن لن يصيبهاإلا ما كتب الله لها
قيل فبِمَ ترحلين؟	قالت: بالطمع بعد القناعة، وبالحرص بعد السماحة، وبالهمّ بعد السرور، وبالشك بعد اليقين

«بم فتحنا الدينا»

٥٤٥ ـ نحن لم نفتح الدنيا بأمهات ماجنات متحلّلات، ولكننا فتحناها بأمهات عفيفات متدينات. ولم نرث خلافة الأرض بأدب الجنس الشره الجائع، ولكننا ورثناها بأدب الخلق الثائر والتهذيب الوادع.

«حبان لا يجتمعان»

٦٦٦ ـ حبّان لا يجتمعان في وقت واحد..

حب الله، وحب المعاصي.	حب الجهاد، وحب الحياة.
حب التضحية، وحب المال.	حب الحق، وحب الرئاسة.
حب السلام، وحب الانتقام.	حب الإصلاح، وحب السلامة.
حب الكفاح، وحب الراحة.	حب العدل، وحب الاستبداد.
حب الشعب، وحب الطغيان.	حب الخير، وحب الخداع.

«كارثة اجتماعية»

٧٧٧ ـ خمسة يعتبر موتهم كارثة اجتماعية: الحاكم الصالح في قوم فاسدين، والعالم الناصح في قوم جاهلين، والمصلح المخلص في قوم غافلين، والقائد الشجاع في قوم متخاذلين، والحكيم الشيخ في أحداث طائشين.



إنّ لله عبادًا قطعوا علائق الشهوات ، وأسرجوا مراكب الجدّ
بصدق العزمات وامتطوا جياد الأمل ، واتجهوا إلى الله
على وَجَل ، وتزودوا إليه بصالح العمل ، مع إخلاص النيّة
وتوسّلوا إليه بصفاء القلب وصدق الطوية ، فمروا بالخضرة
الفاتنة مسبحين ، وبالحطب اللاهب مستعيذين ، ولم يعبؤوا
بالعقبات ، ولم يلتفتوا إلى المغريات ، قد صانوا وجوههم
عن الابتذال ، وطهروا أقدامهم من الأوحال ، استعانوا
بالله على مشقّة الطريق فذلّل لهم صعابه ، وعلى بعد المدى فلملَم
لهم رحابه ، فلمّا اجتازوا الصعاب ، سألوا الله ففتح
لهم بابه ، فلمّا دخلوه استضافوه فقربهم ورفع دونهم
حجابه ، فلما استطابوا المقام بعد طول السرى قالوا :
« الحمد لله الذي صدقنا وعده ، وأورثنا الأرض نتبوّأُ
من الجنة حيث نشاء ، فنعم أجر العاملين » أولئك
أُحبّاء الله ، صدقوه لعهد فصدقهم الوعد ، ومحضوه
الحبّ فمنحهم القرب .

مصطفى السباعي

«شر الفقر»

٧٨٩ ـ شر أنواع الفقر أربعة: الفقر في الدين، والفقر في العقل، والفقر في الصبر، والفقر في المروءة.

«إنابة»

إذا نزل بك ما لا تملك دفعه فأقلل من الشكوى وأكثر من الدعاء.

«أصالة المجد»

من لم تسر في عروقه دماء المجد لا يمكن أن ينشىء مجداً، ومن لم يتسلل من جباه مرتفعة لم يستطع أن يرفع رأساً إلا في غفلة الشرفاء.

«القلب الكبير»

لا تنقل أحزانك إلى أطفالك، بل دعهم يعيشون المرحلة الوحيدة التي لا يعرفون فيها هموماً ولا أحزاناً. ولا تنقل أحزانك وآلامك إلى الناس فلكل إنسان من أحزانه وآلامه ما ليس معه مزيد لتحمل آلام وأحزان أخرى.

«تهمة ظالمة»

يا جيل النكبة في فلسطين! أساءوا الوصاية عليك فلما أصبحت شريداً زعموا أنك سيّىء الأخلاق.. هل كان ذلك إلا من سوء تصرفهم وخيانة أمانتهم؟

«مجتمع المؤمنين»

ما أجمل الحياة بين قوم يتحابون في الله! لا طمع ولا شكّ ولا هجر ولا عبوس.. ولكنه إيثار وثقة ووصال وابتسام.

ومن روائع كلماته رحمه الله في المواعظ والحكم[14]:

● خلوة ساعة بينك وبين ربك، قد تفتح لك من آفاق المعرفة، ما لا تفتحه العبادة في أيام معدودات.

● لا تكتمل الرجولة إلا بثلاث: ترفّع عن الصغائر، وتسامح مع المقصرين، ورحمة بالمستضعفين.

● إذا همّت نفسك بالمعصية فذكرها بالله، فإذا لم ترجع فذكرها بأخلاق الرجال، فإذا لم ترجع فذكرها بالفضيحة إذا علم بها الناس، فإذا لم ترجع فاعلم أنك تلك الساعة قد انقلبت إلى حيوان.

● إذا أمدّك الله بالنعم وأنت على معاصيه فاعلم بأنك مستدرج، وإذا سترك فلم يفضحك فاعلم أنه أراد منك الاسراع في العودة إليه.

● ثلاث احرص على صحبتهم: عالم متخلق بأخلاق النبوة، وحكيم بيضت فوديه ليالي التجربة، وشهم له من مروءته ما يحمله على نصحك إذا أخطأت، وإقالتك إذا عثرت، وجبرك إذا انكسرت، والدفاع عنك إذا غبت، والإكرام لك إذا حضرت.

● احذر الحقود إذا تسلط، والجاهل إذا قضى، واللئيم إذا حكم، والجائع إذا يئس، والواعظ المتزهد (الذي يتظاهر بالزهد) إذا كثر مستمعوه.

● لأن تحسن الظن فتندم، خير من أن تسيىء الظن فتندم.

السباعي الشاعر:

لقد عرف الناس السباعي قائداً مجاهداً، ومرشداً مربياً، وعالماً

---

(١٤) مجلة حضارة الإسلام - الأعداد ٤، ٥، ٦، عام ١٩٦٤، ص٢٩.

فقيهاً، وخطيباً ناثراً، ومفكراً حكيماً، وسياسياً صادقاً. . في كل فترة من فترات حياته. . أما الشعر فلم يعرف عنه إلا في السنوات الأخيرة من حياته. . السنوات التي كان يعاني فيها من شدة المرض. . فجاء شعره في هذه الفترة مناجاة. . وتضرعاً ودعاء. . ينطق بالحكم ويحمل روح الداعية الذي يشكو عنت الزمان والأحداث.

والحقيقة أن السباعي قال الشعر منذ يفاعته. . قاله في الدعوة إلى الإسلام، وقاله في الأحداث السياسية التي مرّ بها وطنه. ولكن انشغاله بالجهاد والتربية، وبالعلم والفقه، وبالكفاح الدائب في شتى الميادين جعله من الشعراء المقلّين(١٥).

وقد اخترنا من شعره ثلاث قصائد لتكون في هذا الكتاب:

الأولى: قصيدة بعنوان «طريقي»، وهي لم تنشر في حياة الدكتور السباعي وإنما نشرت بعد وفاته في مجلة حضارة الإسلام. وهو في هذه القصيدة يصف أصناف الناس ومسالكهم.

والثانية: قصيدة بعنوان «رويدك»، وردت في كتاب «هكذا علمتني الحياة».

والثالثة: قصيدة بعنوان «وداع راحل»، نظمها في ساعة من ساعات اشتداد الألم، وبعد أن صارحه الأطباء بيأسهم من شفائه، ففاضت نفسه المؤمنة الراضية بهذه الأبيات التي يودع فيها وداع مفارق أهله وأحبابه وذويه.

---

(١٥) حسني جرار: شعراء الدعوة الإسلامية جـ٢ (بالاشتراك)، ص٣٨.

«طريقي»[16]

دعيني وشأني ليس عذري بشافع
لديك ولا حالي يعنّ ببالك
وهل يلتقي طيران: هذا محلّق
تروم جناحاه سماء ملائك
وذاك مُسِفٌّ عائمٌ فوق جيفة
على الأرض تدنيه لوطء سنابك
وكم بين من يمشي بصيراً بدربه
تضيء له الأقدار وعر المسالك
وبين عَمٍ لا يهتدي لطريقه
يُحاط بحجب مظلمات حوالك
وشتّان ما بين الخليّ من الهوى
وبين محبٍّ مدنف الجسم ناهك
وأنّى يُداني عاقلاً ذا حصافة
جهولٌ سفيه هالكٌ وابن هالك؟
دعيني ففي دنياي همٌّ ومحنة
وقطعُ طريق في المفاوز شائك
وحلٌّ وترحال وحرب وهدنة
وتعليمُ أستاذ وعزلة ناسك
ودنياك، ما دنياك؟ وهمٌ وخدعة
وسعيٌ حثيث نحو شتّى المهالك

---

(16) مجلة حضارة الإسلام ـ الأعداد ٤، ٥، ٦، عام ١٩٦٤، ص١٧٠.

وفي يسرها ضنك وفي عزّها ضنى
تشير لأدنى الشيء أقسى المعارك

إذا كنتِ عن دنياكِ ترضين إنني
سعيد بدنيا الخير لست بفارِك

فإن تسخري مني فلست بساخرٍ
وإن تضحكي مني فلست بضاحك

هُمُ الناس بين اثنين: صيد تشوقهم
معاركُ في ساح الهدى، وصعالك

دعيني أعيش العمر في غربة الهوى
ففي الحق محرابي وفيه مناسكي

وفي النصح لذّاتي في الخير ثروتي
وفي العلم محراثي وفيه سبائكي

«رويدك!»[17]

ومنتظر موتي ليشفي غيظه
رويدك إنّ الموت أقرب موعدِ

كلانا سيلقى الله من غير ناصر
فيحكم من منا الشقيّ ومن هدِي

أغاظك منّي شهرة ومحبة
من الناس أولتني قلادة سؤدد؟

(١٧) مصطفى السباعي: هكذا علمتني الحياة، ص١٩٥.

لعمرك ما ذاك الذي قد أهاب بي
إلى دعوة الإصلاح في ظل أحمد

ولكنه الإخلاص والعلم والظما
وطول عناء الأمس واليوم والغد

أبى المجد أن يعنو لكل مضلّلٍ
تسيِّره الأهواء خبطاً بفدفد[18]

فإن تكن الأيام أودت بصحتي
وعاقت خطى عزمي بكل مسدَّد

فما كنت خواراً ولا كنت يائساً
ولست بثاوٍ في فراشي ومقعدي

سأمشي إلى الغايات مشي مكافح
ألوذ بعزِّ الله من كل معتدِ

وأحمي لواء الحق من أن يدوسه
طغاة غدوْا حرباً على كل مرشد

فمن ساءه عزمي على السير إنني
إلى الله ماضٍ رغم أضغان حسَّدي

وإن يأْس أحبابي عليَّ من الردى
لطول السُّرى فالموت في الحق مسعدي

---

(١٨) الفرفد: الصحراء الواسعة.

«وداع راحل»(١٩)

أهـاجَـكَ الـوجـدُ أم شاقـتـك آثـار
كانـت مغـانـي نعـمَ الأهـل والـدار
ومـا لعـينـك تبـكـي حُرقـةً وأسـىً
ومـا لقـلبـك قد ضجّـت به الـنـار؟
على الأحـبـة تبـكـي أم على طللٍ
لم يبـق فيه أحـبـاء وسـمّـار
وهـل من الـدهـر تشكـو سوء عشرتـه
لم يوف عهـداً ولـم يهـدأ له ثار؟
هيهـات يا صاحـبـي آسـى على زمـن
ساد الـعـبـيد به واقـتـيد أحـرار
أو أذرف الـدمـع في حب يفـاركـنـي
أو في الـلذائـذ والآمـال تنـهـار
فمـا سبـتـنـي قبـل الـيوم غانـية
ولا دعـانـي إلـى الـفـحشـاء فجّـار
أمَـتُّ في الله نفـسـاً لا تطاوعـنـي
في المكـرمـات لهـا في الشـر إضرار
وبـعـت في الله دنـيا لا يسـود بهـا
حق ولا قادهـا في الـحـكـم أبـرار
وإنـمـا حَزَنـي في صبـية درجـوا
غفـلٍ عن الـشـر لم توقـد لهـم نار

---

(١٩) مجلة حضارة الإسلام ـ السنة الخامسة عام ١٩٦٤ ـ الأعداد ٤، ٥، ٦، ص٥١.

قد كنت أرجو زماناً أن أقودهم
للمكرمات فلا ظلم ولا عار
والآن قد سارعتْ دربي إلى كفن
يوماً سيلبسه برٌّ وجبّار
بالله يا صبيتي لا تهلِكوا جزعاً
على أبيكم طريقُ الموت أقدار
تركتكم في حِمى الرحمن يكلؤكم
من يهده الله لا توبقْه أوزار
وأنتم يا أُهيلَ الحي صبيتكم
أمانة عندكم هل يُهمل الجار؟
أفدي بنفسيَ أمّاً لا يفارقها
هَمٌّ وتنهار حزناً حين أنهار
فكيف تسكن بعد اليوم من شجن
يا لوعة الثكل ما في الدار ديّار
وزوجةً منحتني كل ما ملكت
من صادق الودّ: تحنان وإيثار
عشنا زماناً هنيّاً من تواصلنا
فكم يؤرق بعد العزّ إدبار
وإخوةً جعلوني بعد فقد أبي
أباً، لآمالهم روض وأزهار
استودعُ الله صحباً كنت أذخرهم
للنائبات لنا أنس وأسمار
الملتقى في جنان الخلد إن قُبلت
منّا صلاة وطاعات وأذكار

مكتبة الدكتور السباعي:

كان لدى الدكتور السباعي رحمه الله مكتبة ضخمة في بيته بدمشق، تحوي الكثير من الكتب النادرة في شتى المعارف والعلوم وخاصة علوم الفقه.. وكان ممن أشرف على المكتبة وعلى تصنيفها بعد وفاته، الدكتور موفق دعبول، والأستاذ محيي الدين قضماني، بإشراف الأستاذ عمر بهاء الدين الأميري، الذي انفرد بالاشراف على إتمام العمل.

وكان السباعي قد أوصى بأن تهدى مكتبته إلى مكتبة جامعة دمشق بعد وفاته.. إلا أن ناظر الوصي الشيخ مصطفى الزرقا لم ينفذ الوصية بحجة أنها لا تستند إلى أي أوراق أو مستندات مكتوبة تثبت الوصية أو تدعمها..

وقد اقترح الأستاذ الشيخ عبدالفتاح أبو غدة أن يشتري الأستاذ زهير الشاويش المكتبة بسعر يحدد من قبل خبيرين (الأستاذ عبدالرحمن الباني وآخر)، واشترطوا أن تبقى المكتبة في مكان واحد وتنسب للدكتور السباعي. وقد وافق الأستاذ زهير على ذلك.

وكان أن عُيّن الأستاذ الزرقا في موسوعة الفقه الإسلامي في الكويت، فاتصل بالجهات المسؤولة هناك واتفق معهم على بيع المكتبة لهم، وطلب من دمشق شحنها وقد كان.. ودفع للورثة مبلغ خمسة وثلاثين ألف ليرة سورية.. واحتج الأستاذ بسام الاسطواني على هذا البيع ـ وكان يعمل أيضاً بالموسوعة ـ لأن المكتبة ضاعت ضمن الكتب الواردة للموسوعة.

وكانت إحدى أخوات السباعي مع شقيق لها قد أبدت رغبتهما للأستاذ زهير في أن تبقى المكتبة ضمن حصة والدتهم ـ التي لم تكن

متوفاة - وأن لا حاجة لبيعها، ووافق الأستاذ زهير إلا أن هذا الأمر لم يتم[٢٠]..

ولعل الأستاذ الزرقا قد اجتهد في أمر المكتبة ورأى أن تكون في الكويت ليستفاد منها في الموسوعة الفقهية التي تبنّتها وزارة الأوقاف الكويتية.

---

(٢٠) هذه المعلومات مصدرها الأستاذ رضوان دعبول عن الأستاذ زهير الشاويش بمكالمة هاتفية تمت بينهما في عمان صباح يوم الجمعة ٢٧/٨/١٩٩٣.

الفصل السابع

مرضه ووفاته

- مرضه الطويل ومغالبة الآلام
- وفاة السباعي
- تشييع السباعي
- الوفاء للراحل الكبير

مرضه الطويل ومغالبة الآلام:

كان السباعي رحمه الله يحمّل جسمه وأعصابه الكثير من إرهاق العمل المتواصل في سبيل الله، مما جعل هذا الجسم على ما يتمتع به من قوة وحيوية نادرة، ينوء بالأثقال التي حملها وحده، وانطلق بها يسابق الزمن، ليشيد خلال عمره القصير صرح الدعوة الإسلامية، ويعبّد الطريق لجنودها في بلاد الشام. ولم يعبأ بنصح الأطباء ولا بأعراض المرض التي كانت تحمل النذير بانهيار هذا الجسم إن لم يرفق به صاحبه.. ولكن الشعور بالواجب والمسؤولية، كان يتغلب عليه ويصم آذانه عن سماع نصائح الأطباء ونذير أعراض المرض، وكان يقول: «يقولون لي.. أرح نفسك لتشفى، ومعنى ذلك.. إدفن نفسك لتسلم!!».

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجسام

وقصة كفاحه مع المرض ليست حديثة عهد به، ومرضه الأخير لم يكن إلا نتيجة لمقدمات كثيرة، ونهاية لجهد طويل خلال سني شبابه ومراحل كفاحه، وقد حاولت الأمراض والآلام أن تنال من قوته وحيويته ونشاطه وحركته التي لا تعرف الفتور، فلم تفلح. ولكنها لم تتركه واستمرت تلاحقه وكان في كل مرة يتغلب عليها، وينساها في زحمة النشاط والواجبات والأعباء حتى استحكمت به في نهاية الأمر، وسقط المارد العملاق، بعد طول تجلّد ومجاهدة وأصبح كالأسد الهصور وقد ألقي الشبك على عرينه.

فعندما قاد إخوانه في معارك فلسطين، كان مصاباً قبلها بارتفاع ضغط الدم، وكان الأطباء قد أشاروا عليه بالإخلاد إلى الراحة والسكينة والهدوء

وعدم الخطابة، فلم يعبأ بما قالوا، كما أنه تلطف باعتذاره لأبيه عندما ذكّره بنصائح الأطباء وأن مجرد الخطابة تشكل على صحته خطراً، فكيف بالحرب وخوض المعارك. كل ذلك لم يثبط من عزيمته فمضى يثير الجماهير ويدعوها للتطوع، ومضى يقود المجاهدين إلى المعركة دون أن يحسب حساباً لصحته وما يتهددها..

ولما عاد من فلسطين استمر في كفاحه وجهاده لا يثنيه عن عزمه شيء فلم تلبث أن ظهرت عليه أعراض مرض السكر، فكان يعالج أمراضه ولكنه ما كان يحب الراحة، بل كان يستلذ الكفاح والعمل والنشاط.. فلم يقعده المرض، ولم تفتر به همته، ولم تخبو شعلة نشاطه أو تدفق حيويته.

وفي عام ١٩٥٧ وبعيد عودته من رحلته العلمية إلى الاتحاد السوفييتي هجم عليه المرض هجمة عنيفة فأخذ منه أكثر نصفه الأيسر، فشلّ حركته، وأثار فيه الآلام المضنية، فأقعده بعد طول مجالدة، ولكنه رحمه الله كره القعود، وكره الراحة والكسل، ولو كان بسبب المرض الشديد فتمرد عليه وجالد الآلام، واستمر يتابع نشاطه وإلقاء دروسه الجامعية، ومحاضراته التوجيهية، لطلاب كلية الشريعة في «قاعة البحث».. وقد ألقى خلال مرضه هذا أهم محاضراته العلمية على مدرج جامعة دمشق، منها محاضراته عن «اشتراكية الإسلام»، ومنها محاضراته العلمية الرائعة عن «المرأة بين الفقه والقانون». هذا بالإضافة إلى عديد من المحاضرات العلمية التي ألقاها في النوادي الفكرية والثقافية في دمشق، كما استمر يمد الفكر الإسلامي بكل جديد من فكره وعلمه، ويمد الشباب المسلم بالتوجيه والوعي، ويعالج أهم مشكلات العالم الإسلامي على صفحات مجلته «حضارة الإسلام».

وقد استمرت فترة مرضه سبع سنوات، حمل خلالها من الآلام ما لا يقدر على حمله رجال من أولي العزم، إلا من كان له صبر الأنبياء. ورغم هذه الآلام المبرحة المستمرة فقد كانت فترة مرضه هذه من أخصب فترات حياته انتاجاً فكرياً وعلمياً وأدبياً واجتماعياً، فألف القسم الاجتماعي من كتابه «هكذا علمتني الحياة وهو في مستشفى المواساة عام ١٩٦٢، وكان يختلس القلم والقرطاس في غفلة عن أعين الأطباء، الذين شددوا عليه في ضرورة الابتعاد عن التفكير والقراءة والإخلاد إلى الراحة، فكان هذا الكتاب من أروع كتبه وأطرفها لما حواه من الحكمة والتجارب والتوجيه.

ولقد ضرب الأستاذ السباعي خلال مراحل مرضه أروع آيات الصبر الجميل مع ما فيه من الرضا والتسليم لقضاء الله وتحاشي التبرم والشكوى، فما كان يُسمع منه إلا الحمد لله يجري على لسانه كلما سئل عن آلامه مهما اشتدت أو زادت. . فكان رحمه الله كلما اشتدت به الآلام وأرقت ليله، وحرمته لذة النوم أسرع إلى القلم والقرطاس يسجل ما تفيض به نفسه من معاني روحية سامية، يناجي بها ربه في جوف الليل الطويل[1].

وكان رحمه الله راضياً بحكم الله وقضائه، وكلما سئل عن حالته كان جوابه: الحمد لله. . وقد رُويت عنه هذه الحادثة التي تبين مدى قوة إيمانه بالله ورضائه بحكمه، فعندما كان في المستشفى زاره أحد أصدقائه مواسياً له فكان جوابه بعد أن شكره على مواساته:

«قد تجد قولي غريباً ولكني أقول الحق وسأفسر ذلك. . إني مريض أتألم ليس في ذلك ريب. . وإنك لتشاهد الألم على وجهي وعلى يدي

---

(١) محمد بسام الأسطواني: مجلة حضارة الإسلام - الأعداد ٤، ٥، ٦، عام ١٩٦٤، ص١٦٠.

وفي حركتي . . لكن انظر إلى حكمة الله فيّ . إن الله قدير على أن يشلّ حركتي ، وقد شلّ بعض حركتي ، ولكن انظر ماذا شلّ . لقد شلّ طرفي الأيسر وأبقى لي الطرف الأيمن فما أعظم النعمة التي أبقى لي ! أكنت استطيع أن أخط بالقلم لو شل اليمنى مني؟ إن الله قدير على أن يأخذ بصري وأنا محتاج إلى بصري أكثر من أي شيء آخر لكنه أبقاه فهل هناك لطف أكثر من هذا اللطف؟ إن الله قدير على أن يخمد قريحتي لكنه أبقى لي قدرة الفكر والعقل فما ألطفه بي ، إن الله قدير على أن يشل لساني فيمنعني عن الكلام لكنه أكرمني ببقاء قدرتي على الكلام أفليس ذلك فضلاً منه وعفواً؟ لقد قضى الله أن يشل حركتي في السياسة فشلّها لكنه أبدلها بنعمة خير منها : إنه فتح لي سبيل العلم والعمل للعلم . أكنت تراني كتبت ما كتبت وألّفت ما كتبت لو أن صحتي بقيت على ما كانت عليه قوية شديدة فما أعظم لطف الله وكرمه ومنته ونعمته . أفيحق لي بعد ذلك أن أشكو وأن أتذمر؟ أوَ لا يجب عليّ أن أشكر الله على نعمائه؟»[٢] .

لقد ضرب السباعي مثلاً رائعاً في شكره لله في السراء والضراء ، فكان نموذجاً فريداً في طاعته للأوامر الإلهية واستجابته لدعوة الحق .

وفاة السباعي :

في يوم السبت السابع والعشرين من جمادى الأولى سنة ١٣٨٤هـ الموافق للثالث من تشرين الأول سنة ١٩٦٤م ، انطفأت الشعلة المتوقدة ، وهدأت الحركة الدائبة ، وجف القلم السيّال ، وسكت الصوت العذب الرنان ، وتوقف القلب الكبير . . وانتقل السباعي إلى جوار ربه عن عمر لم يتجاوز التاسعة والأربعين . . وهكذا كانت نهاية المطاف رحلة طويلة أبدية

---

(٢) عبدالعزيز الحاج مصطفى : مصطفى السباعي رجل فكر، ص١٢٩ .

إلى الله جل شأنه، بعد أن ترك طيب الله ثراه للأجيال المؤمنة من بعده تاريخاً زاخراً بالمآثر الخالدة، وصفحات لا تطوى من الجهاد المتواصل.

وفور انتشار النبأ، اهتز أثير البرق يحمل الخبر الأليم.. ونعى الفقيد الكبير إلى الشعب كلٌ من رابطة العلماء وجامعة دمشق وأعضاء الهيئة التدريسية في كليتي الشريعة والحقوق والهيئات الإسلامية والشباب المسلم وآل الفقيد. كما نعته الاذاعات العربية والعالمية مع ذكر نبذة عن حياته وجهاده. وحملت أسلاك البرق والبريد فيضاً غامراً من الرسائل والبرقيات من جميع أنحاء العالم، والتي تحمل الأسى والحزن العميق للخسارة الفادحة التي حلت بالإسلام والمسلمين بفقد رجل العقيدة والعلم والجهاد.

يقول الدكتور عدنان زرزور عن جهاده عند وفاته[3]: «توفي رحمه الله والمداد الذي كان يدافع به عن سنة رسول الله ﷺ لم يجف بعد! ليست هذه صورة العالم فحسب، ولكنها قبل ذلك صورة المجاهد المحارب الذي يذود عن دينه بما يستطيع، لأنه كان على حالة من المرض والألم بحيث لو عاف منها القلم والكتاب واللسان كذلك لما لامه أحد.. بل كان محبوه وعارفوه من حوله يشيرون عليه بذلك رحمة به وإشفاقاً عليه!! ولكنها طبيعة المجاهد الذي لا يلقي سلاحه حتى اللحظة الأخيرة.. ورسالة الداعية الذي يخشى أن يخرج من الدنيا قبل أن ينصر دعوته أو ينتصر لها ولو بكلمة يخطّها أو قول يقوله.. ولطالما رأيته ـ رحمه الله ـ يمسك بيمينه القلم ويرتجف تحت يساره القرطاس، يستجيب من قمة آلامه لما تمليه عليه القريحة النافذة، والروح العميقة.. والعقل القوي، غير عابىء بما

---

(٣) الدكتور عدنان زرزور: مقدمة كتاب «عظماؤنا في التاريخ»، ص١٣.

يقرؤه جليسه على وجهه من آثار الآلام العصبية الحادة. . وكأنها إنما ترتسم على وجه آخر غير وجهه، وتحط على جسم آخر غير جسمه. . كانت آلامه هي التي تحدثنا عن نفسها، أما هو ـ شهد الله ـ فلم يكن يجأر بالشكوى إلا بمقدار ما يعلمنا الصبر على قضاء الله، والخضوع لحكمته، والصبر على بلائه. . فكنت أقول في نفسي: ما أروع هذه القضية التي يعيش لها هذا المجاهد الصابر المحتسب. . وما أصدقه من داعية باع لله ما يملك. . ثم اشترى الله منه ما شاء حين شاء، إن الله يفعل ما يريد. .
﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً﴾.

تشييع السباعي:

في صباح اليوم التالي الوفاة الفقيد بدأت الجماهير والوفود التي قدمت إلى دمشق من مختلف المحافظات والبلاد المجاورة تتوافد إلى بيت الفقيد لتلقي النظرة الأخيرة على القائد الراحل وتودعه وتشارك بتشييعه إلى مثواه الأخير. وفي الساعة الحادية عشرة غصت الشوارع والساحات المحيطة بمنزل الفقيد بألوف المشيعين. . وخرجت مئات الآلاف من أبناء سورية بل وخرجت دمشق عن بكرة أبيها تودع قائدها. . وبدأ الموكب سيره تتقدمه السيارات التي تحمل أكاليل الزهور باسم ممثلي الدول العربية والإسلامية في دمشق وباسم مختلف الجمعيات والهيئات الإسلامية. . وسار في المقدمة سفراء الدول العربية والإسلامية، والعلماء وأساتذة الجامعة وممثلو الهيئات وأهل الفكر والمثقفون والشباب المؤمن الذي حزن على فقد قائده ورائده. وارتفع النعش على أذرع الشباب، وساروا به في شوارع دمشق الكبرى، وارتفعت أصوات الجماهير بالتهليل والتكبير، وانطلقت كلمات الوداع: «في ذمة الله يا سباعي. . إلى رحاب

الله يا سباعي . . على طريقك يا سباعي موكباً بعد موكب، نحن على العهد يا رائد الجيل . . اللهم إنا نشهد وهذه الجموع تشهد أن السباعي أدى الأمانة وبلّغ الرسالة على طريق رسول الله ﷺ، فدعا الأمة إلى ربها، . اللهم إرض عنه فإنا عنه قد رضينا[٤]» .

وغص المسجد الأموي على اتساعه بألوف المصلين، وأقيمت للجنازة صلاة لم تشهدها دمشق منذ زمن طويل . وارتفع نعش السباعي على أكف الشباب الذين أحاطوا به من كل جانب، واتجهوا به إلى مقبرة باب الصغير، حيث يرقد فيها صفوة من أهل التقوى والإيمان من علماء دمشق . . ورددت أصوات الآلاف من الشباب قسم العهد بالثبات والوفاء للدعوة الإسلامية التي حمل السباعي لواءها . وتوالى الخطباء على المذياع يؤبنون الفقيد بكلمات مؤثرة، يعددون فيها بعض مزاياه وشمائله . . وكان أول المتكلمين الدكتور حسن الهويدي، ثم الأستاذ محمد المبارك، والأستاذ محمد المجذوب، والأستاذ مشهور حسن (من الأردن)، والشيخ عبدالرؤوف أبو طوق باسم رابطة العلماء، والدكتور أديب الصالح، والأستاذ الشاعر محمد الحسناوي . . وبعد ذلك تقدم المشيعون من آل الفقيد يشاركونهم العزاء . .

يقول الشيخ محمد المجذوب عن موكب التشييع[٥] : «وصلت دمشق ظهر اليوم التالي ـ لوفاة الدكتور السباعي ـ ولم أعرف مكان الجثمان إلا من انقطاع حركة المواصلات في شارع مدحت باشا، وسرعان ما ابتلعني موكب الجنازة العزيزة كقطرة ماء لامست السيل الهادر، الذي ما لبث أن ملأ شارع الحميدية حتى قلب الجامع الأموي! . وأبت دمشق الوفية

(٤) عبدالعزيز الحاج مصطفى : مصطفى السباعي رجل فكر، ص١٣٦ .

(٥) محمد المجذوب : علماء ومفكرون عرفتهم، ص٣٨١ .

المؤمنة أن تحمل السيارة جسد البطل الذي طالما هزَّ منابرها وأثار عزائمها وحفز شبابها لاستعادة مكانتها في خدمة الإسلام، وتحرير أرض الإسلام، فإذا هي تتداول نعشه على الراح حتى المقبرة، التي ضمت من قبله أجساد الأباة من صحابة محمد ﷺ وتابعيهم وتابعي تابعيهم من أعلام الهداة. .

وفي غمرة الأنين والنشيج وانطلاقات الأصوات المؤمنة بشعارات السماء، التي وقف الفقيد حياته الغالية على تركيزها وتحقيقها، والتي بذل في نصرتها آخر أنفاسه في لحظاته الأخيرة. . وجدتني أتساءل وأتذكر. . أتساءل عن السر الذي يحفز هذه السيول من الجموع على تحمل الحر والزحام طوال ساعات، لا تفارق الموكب الحزين حتى تودع الثرى جثمان الرجل، الذي زحفت لتشييعه من أنحاء القطرالسوري، ومن كل بلد مجاور. .

أتقديراً لعلم الفقيد. . وقد كان من العلم في المكان المرموق. . أتعظيماً لجاه ناله من الدنيا؟ وقد كان له الجاه الذي يغبطه عليه الكثيرون من أهل الدنيا. . أم تزلفاً إلى قوم من الأحياء يبتغون لديهم المنفعة بهذه المشاركة!. . ولكن كثيراً من العلماء الكبار يموتون كل يوم، فما يكاد يحس بهم أحد. . وأكثر من هؤلاء أصحاب الجاه الذين تسنّموا بالحق أو بالباطل أرفع المنازل، ثم ذهبوا من هذه الدنيا أذلة لا يكاد يذكرهم أحد، إلا عند تعداد السيئات، وتوزيع اللعنات. .

وأما المنفعة فهي أبعد الأشياء عن هذه المناسبة. . بل لعل ضررها على المشارك فيها هو الشيء الطبيعي، الذي لا ينبغي أن يتوقع سواه.

والحق الذي يحسه كل ذي ضمير، ويدركه كل ذي تفكير، هو أن هذه الألاف المؤلفة إنما زحفت ونصبت وصبرت تمجيداً للفكرة التي دفع

السباعي حياته كلها ثمناً لها، وأذاب قلبه الكبير وقوداً لاستيفاء وهجها، في إخلاص لله لم يَشُبْه مطمع دنيوي، وجهاد للحق لم يستهدف سوى تحرير الوطن الإسلامي من سلطان الطغيان أياً كان مصدره، وتحريراً للفكر العربي والإسلامي من كل استعباد مهما يكن أثره ومؤثره.

والإخلاص لله، والجهاد في سبيله، كانا وما انفكا في تاريخ هذه الأمة مبعث العزة، ومنطلق الخلود.. وصدق الفاروق أمير المؤمنين إذ يهتف في وجه أبي عبيدة أمين هذه الأمة: «.. نحن قوم أعزنا الله بالإسلام، ومهما نبتغ العزة بغيره أذلنا الله».

ألا فليت المخدوعين بمغريات الدنيا، يفطنون لهذه الحقيقة فيصونوا جباههم من تراب الهوان، ويرتفعوا بأنفسهم ونواياهم وأعمالهم إلى المستوى الذي يفرضه الإيمان، ليستحقوا مثل هذا الذي انتهى إليه أبو حسان.

وأخيراً، إنها لكرامة أي كرامة، أن تكون جنازة أبي حسان فرصة لإثارة الروح الإسلامي الذي توهم كثير من قصار النظر أنه قد اندثر!..

ولا عجب، فإن هذا الإسلام الذي أراد الله أن يكون أبداً مدرسة الأبطال، قد جعل مصطفى السباعي بطلاً يرهف في حياته العزام، ويبدع في مماته العظائم».

الوفاء للراحل الكبير:

أُقيمت حفلات تأبين كبيرة وفاء لذكرى الفقيد الكبير في سورية ولبنان والأردن والسودان والعراق، وفي بلدان عربية وإسلامية أخرى.. ومن هذه الحفلات:

وفاء دمشق: كانت دمشق في اليوم الثامن عشر من كانون الأول

١٩٦٤م على موعدها الأول في طريق الوفاء للراحل الكبير مصطفى السباعي، فقد أقامت جامعة دمشق حفلاً تأبينياً ضخماً على مدرجها الكبير تكريماً لذكرى رجل العلم ومؤسس كلية الشريعة وعميدها الأول، والأستاذ في كليتي الشريعة والحقوق ورئيس قسم الفقه الإسلامي في جامعة دمشق الدكتور مصطفى السباعي..

وفي موعد الحفل توافد جمهور غفير من أساتذة الجامعة والعلماء والمثقفين والشباب المؤمن للمشاركة في تخليد ذكرى الراحل الكبير حتى أن المدرج الكبير قد ضاق على رحبه بالوافدين، واضطر أكثرهم للوقوف في الممرات والساحات المحيطة بالمدرج..

وقد بدأ الحفل بآي من الذكر الحكيم، ثم اعتلى منصة الخطابة عريف الحفل الدكتور أديب الصالح فتكلم عن جوانب من شخصية الفقيد وأشار إلى أن هذا الحفل يشكل خطوة أولى في طريق الوفاء للراحل العظيم، وطالب جامعة دمشق التي خدمها الفقيد بعلمه وجهوده أن تفي لذكراه وترعى آثاره ومدرسته الفكرية، ثم قدّم الخطباء فكانوا على التوالي:

الدكتور إسماعيل عزت وكيل جامعة دمشق فتكلم باسم الجامعة. ثم ألقى الدكتور محمد الفاضل عميد كلية الحقوق كلمة قوية رائعة تحدث فيها عن المزايا العظيمة للفقيد. وتكلم الأستاذ محمد المبارك العميد السابق لكلية الشريعة فتحدث عن مراحل جهاد السباعي. وتكلم الدكتور صبحي الصالح فتحدث عن حيوية السباعي المتكافئة مع أحداث العصر. ثم تكلم الدكتور يوسف العش عن الجانب الثقافي والفكري في عقل السباعي. وكانت خاتمة الحفل مفاجئة رائعة أثارت النفوس حين أدير تسجيل صوتي لمقطع من خطبة قديمة للفقيد العظيم، يعرض فيها جانباً من إنسانية الإسلام وضرورة الدعوة إليه.

وفـاء بيروت: وكانت الهيئات الإسلامية في لبنان قد أقامت حفلاً تأبينياً كبيراً في الأسبـوع الأول من شهـر كانـون الأول ١٩٦٤، تكريماً لذكرى فقيد الإسلام الدكتور السباعي.. وفي موعد الحفل توافدت إلى «الخلية الاجتمـاعية» ببيروت الشخصيات الإسـلامية وجماهير الشباب المؤمن.. وكـان عريف الحفـل الأستـاذ محمـد عمـر الداعوق، فقدم الخطباء الذين كانوا على التوالي: الأستاذ عبدالله مشنوق، والشيخ فهيم أبو عبية، والدكتور عمر فروخ، والدكتور صبحي الصالح، والأستاذ فتحي يكن رئيس الجمـاعـة الإسلامية في لبنان.. وتحدث الجميع عن مآثر الفقيد ومناقبه[٦].

وفاء مؤسسة الرسالة: ومن الوفاء أيضاً لأستاذنا السباعي أن نسجل سيرته العطرة في هذا الكتاب ليقتدي به الشباب وتتربّى على نهجه الأجيال.

---

(٦) مجلة حضارة الإسلام ـ الأعداد ٤، ٥، ٦، عام ١٩٦٤، ص٢٤٧.

الفصل الثامن

السّباعي في نظر العلماء والأدباء

- تقديم
- كلمة سماحة السيد أمين الحسيني «مفتي فلسطين»
- كلمة الدكتور معروف الدواليبي
- كلمة الدكتور محمد الفاضل
- قصيدة الأستاذ محمد الحسناوي

تقديم:

العلماء والأدباء والكتاب الذين عاصروا الدكتور السباعي ـ رحمه الله ـ كثيرون. . وقد عرفوه عن قرب، وتعاملوا معه، واطلعوا على نشاطه الميمون وجهاده المبارك في سورية وفلسطين. .

والكثير من هؤلاء عرف لهذا الرجل قدره ومكانته، وأُعجب بقدرته العلمية ونشاطه المتعدد وتفانيه في الجهاد. . فتعاونوا معه في حياته، وافتقدوه بعد مماته، وكتبوا عن سيرته وحياته، وعن علمه وجهاده. . كتبوا كلمات نثرية وشعرية تحمل في ثناياها معاني الصدق والإعجاب والإنصاف والتقدير. .

ومن تلك الكتابات اخترت ثلاث كلمات وقصيدة دونتها في هذا الفصل.

كلمة سماحة السيد أمين الحسيني «مفتي فلسطين»[1]:

الدكتور مصطفى السباعي
فقيد العالم الإسلامي

فقدت سورية في السابع والعشرين من شهر جمادى الأولى سنة ١٣٨٤هـ علماً من أعلامها ومجاهداً من كبار مجاهديها، وفقد العالم الإسلامي عالماً من علمائه الأجلاء وأستاذاً من أساتذته الفضلاء، وداعية

(١) مجلة حضارة الإسلام ـ الأعداد ٤، ٥، ٦، عام ١٩٦٤، ص٧٠.

من دعـاتـه البلغاء هو الأستاذ الدكتور مصطفى السباعي صاحب مجلة «حضارة الإسلام» وأحد كبار المجاهدين المدافعين عن القضايا العربية والإسلامية.

لقد كان الفقيد علماً من أعلام الفكر الإسلامي في عصرنا الحاضر، فقد تثقف ثقافة إسلامية صحيحة ونهل من منهلها العذب حتى ارتوى، ثم أفـاض على ألـوف من تلامـذته وقراء مجلته ومؤلفاته، من ذلك المنهل العذب ما دلّ على غزارة علمه وسعة اطلاعه، وجدارته لما اضطلع به من عبء الـدعوة الإسلامية وما أهّله لتسنم منصب عميد كلية الشريعة في جامعة دمشق.

لقد عرفت الفقيد الكريم طيب الله ثراه معرفة صحيحة، فعرفت فيه الصدق والإخلاص والصراحة ومضاء العزيمة والاندفاع في سبيل العقيدة والمبـدأ. وكانت له قدم صدق ويد بيضاء في خدمة القضايا الإسلامية والعربية وفي طليعتها قضيتـا سورية وفلسطين. وهذه الأخيرة جاهد فيها بقلمـه ولسـانه كما جاهد بنفسه على رأس كتيبة من مجاهدي الإخوان المسلمين دفـاعـاً عن بيت المقدس عندما كان عرضة لأشد الهجمات اليهودية المسلحة عام ١٩٤٨.

وبرغم قوة بنية الفقيد الكريم فقد ناء بها توقد ذهنه ومضاء عزيمته، واندفاعه في مقارعة المستعمرين والصهيونيين، ونشر الدعوة الإسلامية، وتثقيف النـاشئـة الإسـلامية ثقافة صحيحة تعود على المسلمين بالخير والفلاح، فغلبه المرض وأقعده الداء العياء في الفراش منذ عام ١٩٥٧ إلا أنـه لم يقعـده عن العمـل والانتـاج الفكري، ومن ذلك مجلة «حضارة الإسلام» التي اشتملت على جليل البحوث وطرائف الموضوعات، في الفقه الإسلامي ومعالجة الشؤون الإسلامية من دينية واجتماعية وسياسية.

وقضى الفقيد نحبه وقد قارب الخمسين من سنيه التي قضاها عاملاً مجداً مجاهداً في سبيل الله وسبيل أمته ووطنه، فكان المصاب فيه كبيراً والخسارة فادحة، وإنا لنسأل الله أن يتغمد الفقيد الكريم بواسع رحمته ويسكنه فسيح جنته ويعوض الأمة خيراً عن فقده.

كلمة الدكتور معروف الدواليبي(٢):

السباعي
كان أمّة في فرد

أبا حسّان.. كلما جلست أريد تسجيل كلمة حول غيابك عنا ونحن أحوج ما نكون إليك، تمثلت لي أعباؤك العظام، تلك تحملها عنّا جميعاً في سبيل الله وفي سبيل الإسلام، فرثيت لأنفسنا من بعدك، قبل رثائنا عليك لغيابك..

أبا حسان.. كلما حاولت أن أستنطق القلم ليقول فيك ما أنت له أهل، افتقدت القلم الذي هو لتسجيل فضائلك ومروآتك وأمجادك أهل.. فأنت ملء أعين المبصرين، وأسماع السامعين، وقلوب المعجبين..

أبا حسان.. وقيل مثلك يا أبا حسان فأنت صاحب القلب الكبير، والعلم الوفير، والأدب الغزير، والبيان الخطير، فإذا ناقشت في أمر جلل انقادت إليك الأسماع، وإذا خطبت ملكت على سامعيك القلوب، وإذا وعظت استجابت إليك الدموع، وانقادت إليك النفوس.

أبا حسان.. وقليل مثلك يا أبا حسان.. فقد كنت في عملك حين الأزمات، وفي نضالك عند المهمات، مجموعة رجال في شخص بل أمة

---

(٢) مجلة حضارة الإسلام ـ الأعداد ٤، ٥، ٦، عام ١٩٦٤، ص٣٠.

في فرد. . ولذلك كان المصاب بفقدك عظيماً، والعبء على من بعدك في رسالتك ثقيلاً . .

وفوق ذلك، فأنت يا أبا حسان الأخ الحبيب، والصديق الوفي والأستاذ والرفيق، والمؤنس حين الضيق، فلا عجب أن بكتك دوماً عيوننا، واستوحشت لفقدك أبداً قلوبنا.

كلمة الدكتور محمد الفاضل(*) «عميد كلية الحقوق في جامعة دمشق(٣)»:

السباعي رائد الطليعة

في الاصلاح الديني والاجتماعي والسياسي

السيد وزير التربية والتعليم، السادة الوزراء والسفراء، أيها الحفل الكريم:

إن الشعور بمرارة الفجيعة، وفداحة الخطب، يزداد على الزمن عمقه، واتساعه، وامتداده، كلما كانت شخصية الفقيد عميقة الالتصاق بجذور المجتمع، واسعة الاتصال بآفاق الحياة، ممتدة الجنبات في رحاب المعرفة. . والفقيد الراحل من هذا الطراز الانساني الرفيع: كلي النظرة قوي الاحاطة والشمول، متعدد الجوانب، متشعب المواهب، رائد. . في الطليعة من رواد الاصلاح الديني والاجتماعي والسياسي في

(*) الدكتور محمد الفاضل. . كان أستاذاً للقانون الجزائي في كلية الحقوق بجامعة دمشق، ثم صار عميداً للكلية، ثم رئيساً لجامعة دمشق. وهو من وجهاء الطائفة العلوية. كان مستشاراً للرئيس السوري حافظ أسد، يستشيره في كثير من الأمور. وكان قديراً ممدوح السيرة، يحترم الدكتور السباعي ويقدّره ويظهر إعجابه به. .

(٣) مجلة حضارة الإسلام - الأعداد ٤، ٥، ٦، عام ١٩٦٤، ص٥٨.

العالمين العربي والإسلامي: حمل زنده راية الدعوة الإسلامية زهاء ربع قرن، دون أن يهن الزند أو يلتوي، ورفع ساعده راية محمد ـ صلى الله عليك يا محمد ـ فلم يضعف الساعد، وبقيت راية محمد خفاقة تزحم النجوم.. ودعا لسانه الجريء الحر المتدفق إلى الوحدة تحت علم القرآن، فنديت العربية بالحق على لسانه، واعشوشبت المنابر بالمعين الثر من بيانه، وكان في ذلك كله عزمة لا تسعها قدرة، وشعاعاً لا يحصره أفق، وحيوية مؤمنة دافقة صمدت في وجه الشدة حتى خجلت الشدة ذاتها من الصمود..

ثم قضى الفقيد الكبير كما يقضي الفارس المعْلم في قلب المعركة: كبرياء النصر في عينيه، ودعوة الحق بين شفتيه، ووهج العقيدة المؤمنة يعمر جنبيه، ولواء المعرفة مُشْرع بين زنديه، وهذا الأمل العريض، بمستقبل كتائب الإيمان في الأجيال الصاعدة من بعده يملأ شغاف نفسه، ويأخذ بمجامع لبه.. فلا والله ما بقيت ريحانة من رياحين الغوطتين إلا تمنّت أن تكون ضفيرة من ضفائر المجد على جبينه، ولا والله ما بقيت مزنة طَيبة عطرة من سحائب رياض الفيحاء إلا رجَت أن يُضمخَ بها جثمانه، أو أن ينَدَّى بها ضريحه.

ومن هنا كان مأتم الفقيد الكبير السباعي مأتم الأمة العربية جمعاء، ويوم ذكراه من أيام ثكل الأمة جمعاء..

أيها السيدات والسادة:

لقد كانت لي غبطة الاتصال بالفقيد الكبير منذ أن عين مدرساً في كلية الحقوق في جامعة دمشق، ولم أكن أعلم عنه إلا ما روته لنا آيات جهاده ضد الانتداب وزبانيته. وكانت شخصية السباعي، كشخصية كل نابغ عظيم في هذا البلد، يلفها خصومه بأوشحة من الخرافات والأساطير

والحكايات التي تمليها المصالح والأحقاد.. وأشهد أنني ورعيلاً من زملائي أعضاء هيئة التدريس لم نقرب الفقيد الكبير في السنوات الأولى من معرفتنا به إلا على حذر شديد، ثم لم يلبث أن تبدد هذا الحذر، وغدونا - بحكم الاتصال الدائم والنقاش العلمي المنهجي الهادىء - كلما ازددنا من الفقيد الغالي قرباً، ازددنا له حباً وبه تقديراً وإعجاباً.

وكانت له - يرحمه الله - آراء.. وكانت لنا آراء.. فكنا نتقارب في النظر تارة، ونتباعد تارة أخرى. وأشهد أن اختلاف الرأي لم يفسد علينا مودتنا، ولم ينتقص من الشعور المتبادل بالاحترام والتقدير. وأشهد أنه قد كان - طيب الله ثراه - رقيق الأهاب، متفتح الذهن، يتكلم فيشع عقله في معانيه، ويشيع ذكاؤه في مراميه، ويسيل شعوره الحي على ألفاظه وعباراته، ويحيا القضية التي يعمل لها بكل حواسه ومشاعره: بديهة حاضرة، وذهن متوقد نفاذ، واطلاع شامل، ومنطق مستقيم، ورجولة بعيدة الغور، سنية القصد. كان - نضّر الله مثواه - ذكياً إلى درجة الحكمة، مشبوب العزم إلى درجة المغامرة، طموح النفس فلا يحصر أفقه يأس، ولا يحد غايته مطلب، بعيد الهمة فلا يضِله كغيره شارد الخيال، ولا يغره كغيره خادع الأمل، كبير القلب فلا يشوب غرضه سوء. ورث شمائل العروبة الأصيلة، ورث حفظ الكرامة ورعاية الحق، والانصاف بالأريحية والنجدة، فكان عربياً بدمه، مسلماً بخلقه وعقيدته، ولم يكن - والعياذ بالله - من أولئك الشعوبيين الذين يعيشون على الأمة العربية ولا ينتسبون إليها..

لقد اعتنق السباعي - في رأيي، وهذا ما يجعله عظيماً في عيني - عقيدة، وظل أمينا لها بلسانه وقلمه حتى آخر نسمة من نسمات حياته. عقيدته: أن دعوة القومية العربية التي بعثت من جديد لتلم شتات العرب

في كل قطر وتجعل منهم أمة موحدة الرغائب والقوى يجب أن تقوم على أساس من قيم الإسلام الروحية، وتعاليمه الأصيلة، وتراثه الحضاري الخالد.

إن الإسلام كان وسيبقى.. ويجب أن يبقى: ظئراً للعروبة: حماها حماه، وقيمها مشتقة من قيمه.. مستلهمة منها. متساوقة.. منسجمة معها..

وثمة عقيدة ثانية ما حاد عنها السباعي في كل ما عرفته من حياته، وهي: إن الانسان ما خلق إلا ليكون حراً، فمن أقدس واجباته أن يجاهد في سبيل حريته بغير هوادة ولا ملل، لاسيما حرية الفكر والضمير.

بيد أن هذه الحرية - في رأي السباعي - يجب أن تمارس في إطار من القيم الخلقية والفضائل الروحية، فشرف الكلمة يجب أن يقدم على حريتها. لنخشع أمام هذه العبارة الفذة من عباراته:

«إن الذين يزعمون أن من حقهم أن يقولوا ما يشاؤون باسم حرية الكلمة ينسون أن شرف الكلمة قبل حريتها، ولم أجد أمة تسمح بالخيانة الوطنية باسم الحرية، ولكن نفراً عندنا يريدون خيانة الشرف الاجتماعي باسم الحرية، ولو كان عندي رأي عام واع لحاكمهم كما يحاكم خونة الوطن في قضاياه الوطنية[٤]».

ثم إن ثمة عقيدة ثالثة، تكاد تكون صفوة حياة الفقيد الكبير، بل هي جوهر دعوته الإصلاحية التي تعتبر - في نظري - امتداداً لدعوة كبار المصلحين في العالمين العربي والإسلامي، وتكاد تسلكه في العقد الثمين الذي من بعض لآلئه جمال الدين الأفغاني وعبدالرحمن الكواكبي

---

(٤) د. مصطفى السباعي: هكذا علمتني الحياة، ص١٣٩.

ومحمد عبده.

اسمعوه ـ تغمده الله برحمته ـ يعرب عن رأيه فيقول:

«الذين يطمسون وجه الشريعة المشرق بجهودهم اسوأ أثراً من الذين يطمسونه بجحودهم[5]».

ثم اسمعوا من حكمه الغوالي:

«الذين يلبسون لبوس الدين ثم يستغلونه أشد خطراً على الدين ممن يكشفون عن وجوههم فيحاربونه».

ويضيف فقيدنا الكبير:

«مصيبة الدين في جميع عصوره بفئتين: فئة أساءت فهمه، وفئة أتقنت استغلاله.. تلك ضللت المؤمنين به، وهذه أعطت الجاحدين حجة عليه[6]».

ويبلغ الفقيد الغالي القمة في الدعوة إلى فهم الإسلام فهماً صحيحاً وفي التحرر مما علق بالدين في عهود الانحطاط، وما يبعده عن أصالة الرسالة المحمدية، فيقول:

حين تضيع معاني الدين وتبقى مظاهره، تصبح العبادة عادة، والصلاة حركات، والصوم جوعاً، والذكر تمايلاً، والزهد تحايلاً، والخشوع تماوتاً، والعلم تجملاً، والجهاد تفاخراً، والورع سخفاً، والوقار بلادة، والفرائض مهملة، والسنن مشغلة.

وحينئذ.. يرى أدعياء الدين عسف الظالمين عدلاً، وباطلهم حقاً، وصراخ المستضعفين تمرداً، ومطالبتهم بحقهم ظلماً، ودعوة الاصلاح

(٥) د. مصطفى السباعي: هكذا علمتني الحياة، ص٣٢٥.

(٦) د. مصطفى السباعي: هكذا علمتني الحياة، ص٦٩٥ ـ ٦٩٧.

فتنة، والوقوف في وجه الظالمين شراً.

وحينئذ.. تصبح حقوق الناس مهدرة، وأباطيل الظالمين مقدسة، وتختل الموازين، فالمعروف منكر، والمنكر معروف.

وحينئذ.. يكثر اللصوص باسم حماية الضعفاء، وقطّاع الطرق باسم مقاومة الظالمين، والطغاة باسم تحرير الشعب، والدجالون باسم الهداية والاصلاح، والملحدون بحجة أن الدين أفيون الشعوب[٧].

أيها السيدات والسادة:

هذه قبسات يسيرة من الدعوة الاصلاحية الحرة التي حمل مشعلها نسرنا الصريع في آفاق دنيا العرب والمسلمين، وما أخالني مهما أفضت فيه، إلا أن كلمتي تضيق عن استيعاب كنهه، وتنكمش حواشيها عن عميق ذاته.. حسبي أن أقول لكم: إذا ما ذكرتم الفقيد الكبير مصطفى السباعي فاذكروا الداعية المصلح في زمن عز فيه الدعاة المصلحون، واذكروا فارساً من فرسان المنابر، وكاتباً أديباً، ومؤلفاً بارعاً، وفقيهاً مجدداً، واستاذاً جامعياً عالماً، قضى نحبه في طلب العلم ومن أجل العلم، واذكروا له فكرته الخلاقة المبدعة في إنشاء موسوعة للفقه الإسلامي، واذكروا له دفاعه عن «السّنة ومكانتها في التشريع الإسلامي» وشرحه الرائع لقانون الأحوال الشخصية، واذكروا له «اشتراكية الإسلام» و«المرأة بين الفقه والقانون» وما باهى به الملأ «من روائع حضارتنا» وما نثره من خواطره وأفكاره الاجتماعية في كتابه المليء بالتجربة والحكمة: «هكذا علمتني الحياة». وما وقف له جهده العلمي القيم من بحوث وآراء في مجلته «حضارة الإسلام».

---

(٧) د. مصطفى السباعي: هكذا علمتني الحياة، ص٢٢٦.

ثم اذكروا ـ أيها السيدات والسادة ـ فوق كل هذا، وبعد كل هذا . .
اذكروا رجلاً سار في مقدمة الرعيل الأول من فرسان اليقظة الحديثة في دنيا العرب، حيث المسالك وعرة، والعقبات في وجه المصلحين أكثر من أن تحصى، فما لوى عنان جواده يمنة ولا يسرة، ولا ارتد منهوكاً من المقدمة إلى المؤخرة. بل ظل فضيلة الأستاذ الدكتور مصطفى السباعي طيلة حياته ضميراً حراً لا يُسخَّر وجبيناً عالياً لا يُعفَّر. ..

ولقد شوهد السباعي، وإخوان السباعي في حومة فلسطين ـ رعى الله فلسطين ـ يتسعرون بالاقدام، ويتفجرون بالحمية الوطنية، ويهتفون بالتضحية، ويجدعون بالإيمان أنف النكبة. . بينما كان الغواة المضللون يلتهمون زاد الأمة العربية مع الوحش، وينضِجون شواءهم في حريقها.

فيا أخي، وزميلي، أبا حسان:

لطالما طارحتني الحديث، ولشد ما اختلفنا حيناً، واتفقنا حيناً. . فللّه أنت اليوم ما أفصحك ساكناً، وما أعياني متكلماً، ما أحراك بالكلام وأحراني بالصمت والاصغاء. لست أبكيك لأنك حيث أنت في غنى عن دموعي، ولأنك حي في ضمائر إخوانك الجامعيين منهم وغير الجامعيين، حي في وجدان البقاء.

ولست أرثيك، يا زميلي، فنحن الأحياء أجدر بالرثاء وأحق بالدموع منك، لأنك نزعت عنك خوف الموت، أما نحن فما برحنا كالقصبة المرتجفة على سبيل الموت والحياة.

أنا واثق يا صديقي أنه لن يرضيك ولن يرضينا أن يكون كل وفائنا لك حفلة تأبينية وبضع كلمات في رثائك. . ولكن الوفاء، حق الوفاء، أن يعمل المسؤولون في جامعة دمشق على تخليد ذكراك بتخليد دعوتك،

ونشر رسالتك، والإبقاء على مؤلفاتك، والسهر على تحقيق مشروعك العظيم في موسوعة الفقه الإسلامي.. فهذا الذي يجدي.. وهذا الذي يرضي..

رحمك الله يا أبا حسان رحمة واسعة، ورضي عنك، وغفر لك ما تقدم من ذنبك وجزاك خيراً عن جهادك ﴿**يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم**﴾. صدق الله العظيم.

قصيدة الأستاذ محمد الحسناوي[8]:

الوداع

أرحلت حقاً يا أبا حسّانِ ... من غير ما نبأ ولا إعلان

أرحلت في وضح النهار ونحن أعداد النجوم وعدّة الأزمان

أرحلت، لولا شئت فديناك يا ... حب القلوب بأكبد الإخوان

لو شئت عبّدنا الطريق، فما مشيت ... ولا اتجهت على سوى الأبدان

لو شئت آنسناك آلافاً مؤ ... لفة، تهز معاقل الطغيان

أنا لا أصدق، لا أطيق، ولست ... أسمع رنة الناعين في الآذان

بالأمس كنت لديك تلهمني الحيا ... ة، وتنشر المطوي من أشجاني

وتثير إيماني الفتي، وأنت أصـ ... ـلب فارس في حومة الميدان

كم جاء يخطب كل عملاق ودا ... دك بالمنى والأصفر الرنان

كم دولة كبرى دعتك فما استجبت ... لغير صوت الحق والإيمان

وسخرت بالإغراء والتهديد، لا ... قرت بفقدك مقلة الخوان

ومشيت إذ قعد الورى، لتغيث أرض الأنبياء بغيثك الربّاني

بكتائب الرحمٰن تجتاح اليهو ... د، تذود عن دين وعن أوطان

ورجعت صلب العود عالي النفس ... ترسي الأس فيما انهار من بنيان

ورجمت أصنام الخيانة والهوى ... ودمغت كل مداور وجبان

ودعوت شبّان البلاد إلى الهدى ... فتجاوبت أصداء سوريا إلى لبنان

وتقاطرت سحب الغمام فأمطرت ... ما اربد من قفر ومن بستان

في كل عين يقظة، وبكل جمع ... صيحة، كالنشر، كالطوفان

فإذا العروبة راية معقودة ... لله.. للتوحيد.. للفرقان

---

(8) مجلة حضارة الإسلام - الأعداد ٤، ٥، ٦، عام ١٩٦٤، ص٢٠٠.

وإذا شعوب المسلمين عزيمة … من سفح (تطوان) إلى اليابان
تلقي لـ(إقبال) و(نواب) و(بنّاء) زمام فؤادها الظمآن
وإذا الخلافة قاب قوسين ارتمت … بعد الغياب ولوعة الهجران
لا نهب للبترول، لا استعمار، لا … استبداد، لا حلف مع الشيطان
لا حكم إلّا شرعة الدين الحنيف … ولا انقياد لشرعة الأوثان
وكأنما حلم يمر إذا حلا … ما إن يداعب يقظة الانسان
ولقد صحونا يا (سباعي) صحوة … قد جرعتنا حنظل الخسران
قتل (الإمام) ولاذ (نواب) به … وكبا (أبو الأعلى) بباكستان
واليوم، هذا اليوم، لا أهلاً به … ما دام يطوي طاهر الجثمان
أنا لا أصدق، لا أطيق، ولست أسمع رنة الناعين في الآذان
كم تكذب الأبصار والأسماع، فلتكذب لأجلك يا أبا حسان
ولتكذب الدنيا لأنك آية … لله.. قد عزت على التبيان
فيك الأبوة والقيادة والتقى … والعلم والإخلاص للرحمٰن
فيك الجهاد شجاعة وريادة … لله.. كم أصفاك من إحسان
كيف العزاء وكنت أنت عزاءنا … يا أيها المشدود بالأكفان
أو لست من هز المنابر والعرو … ش، وزلزل الطاغوت بالإيمان
فانهض فديتك لا تجاذبك الخيو … ط، وأنت فارس حومة وطعان
أنا لا أصدق، لا أطيق، ولست أسمع رنة الناعين في الآذان

المصادر والمراجع

١ ـ حسني أدهم جرار: القدوة الصالحة، (عمان: دار الضياء) ١٩٨٥ .

٢ ـ حسني أدهم جرار: شعراء الدعوة الإسلامية في العصر الحديث جـ٢ (بالاشتراك) (بيروت: مؤسسة الرسالة) ١٩٨٥ .

٣ ـ خير الدين الزركلي: الأعلام جـ٧، (بيروت: دار العلم للملايين) ١٩٩٠ .

٤ ـ عارف العارف: نكبة بيت المقدس جـ١ ، جـ٢ ، (بيروت: المكتبة العصرية) ١٩٥٦ .

٥ ـ عبدالله الطنطاوي: الشيخ مصطفى السباعي، (دار النذير) ١٩٨٤ .

٦ ـ عبدالعزيز الحاج مصطفى: مصطفى السباعي رجل فكر (عمان: دار عمار) ١٩٨٤ .

٧ ـ علي الطنطاوي: ذكريات جـ٤ ، جـ٥ ، (جدة: دار المنارة) ١٩٨٩ .

٨ ـ فتحي يكن: الموسوعة الحركية، (بيروت: مؤسسة الرسالة) ١٩٨٠ .

٩ ـ محمد المجذوب: علماء ومفكرون عرفتهم، (جدة: عالم المعرفة) ١٩٨٣ .

١٠ ـ د. مصطفى السباعي: الإخوان المسلمون في حرب فلسطين (دار النذير) ١٩٨٥ .

١١ ـ د. مصطفى السباعي: دروس في دعوة الإخوان، (دمشق) ١٩٥٥ .

١٢ ـ د. مصطفى السباعي: السنة ومكانتها في التشريع، (بيروت:

المكتب الإسلامي) ١٩٨٥ .
١٣ ـ د. مصطفى السباعي : عظماؤنا في التاريخ، (بيروت : المكتب الإسلامي) .
١٤ ـ د. مصطفى السباعي : هكذا علمتني الحياة، (بيروت : المكتب الإسلامي) ١٩٨٦ .
١٥ ـ مجلة حضارة الإسلام ـ الأعداد ٤ ، ٥، ٦ ـ عام ١٩٦٤ .

مقابلات شخصية :

تم إجراء مقابلات شخصية مع كل من :

١ ـ أحمد الخطيب . . مقابلة في عمان في ١٩٩٣/١٢/٤ .
٢ ـ إسماعيل كيلاني . . مقابلة في ١٩٩٣/١٢/٢٥ .
٣ ـ الدكتور حسن هويدي . . مقابلة في ١٩٩٣/١١/٣٠ .
٤ ـ رضوان دعبول . . مقابلة في ١٩٩٤/٢/١٥ .
٥ ـ زهير شاويش . . مكالمة هاتفية في ١٩٩٣/٨/٢٧ .
٦ ـ عادل كنعان . . مقابلة في ١٩٩٣/١٢/٢٠ .
٧ ـ عبدالله الطنطاوي . . مقابلة في ١٩٩٤/١/٧ .
٨ ـ عبدالحميد الأحدب . . مقابلة في ١٩٩٤/٢/١٢ .
٩ ـ الدكتور عبدالعزيز الخياط . . مقابلة في عمان في ١٩٩٤/٣/٢١ .
١٠ ـ عدنان الدبس . . مقابلة في ١٩٩٤/٢/١٣ .
١١ ـ عدنان الطباع . . مقابلة في ١٩٩٣/١١/٦ .
١٢ ـ عمر عبيد حسنة . . مقابلة في ١٩٩٣/١٢/١٩ .
١٣ ـ عيد البغا (أبو سليم) . . مقابلة في ١٩٩٣/١١/١٧ .
١٤ ـ الدكتور فايز المط . . مقابلة في ١٩٩٣/١١/٩ .

١٥ ـ كامل الشريف . . مكالمة هاتفية في ١٩٩٤/١/٣ .

١٦ ـ الدكتور محمد أمير العرقسوسي . . مقابلة في ١٩٩٣/١١/١٠ .

١٧ ـ محمد عبدالرحمن خليفة . . مقابلة في عمان في ١٩٩٣/١١/١٤ .

١٨ ـ محمد نعسان عرواني . . مقابلة في ١٩٩٣/١١/٣٠ .

١٩ ـ مشهور ضامن بركات . . مقابلة في عمان في ١٩٩٤/١/٦ .

٢٠ ـ مصطفى الصيرفي . . مقابلة في ١٩٩٣/١٢/٢١ .

٢١ ـ موفق الشاويش (أبو زيد) . . مقابلة في ١٩٩٤/١/٨ .

٢٢ ـ هاني طايع . . مقابلة في ١٩٩٣/١٢/٢١ .

٢٣ ـ الدكتور يوسف القرضاوي . . مقابلة في الدوحة في ١٩٩٣/١٢/١٧ .

فهرس الموضوعات

الفصل الثاني

السباعي مؤسس حركة

الفصل الثالث

السباعي قائد جهاد

الفصل الرابع

كفاحه السّياسي

الفصل الخامس

نشاطه الاجتماعي ورحلاته

الفصل السادس

نشاطه في مجال العلم والبحث والأدب

الفصل السابع

مرضه ووفاته

الفصل الثامن
السباعي في نظر العلماء والأدباء

كتب للمؤلف :

١ ـ شعراء الدعوة الإسلامية في العصر الحديث ١٠ أجزاء (بالاشتراك).
٢ ـ أناشيد الدعوة الإسلامية ـ أربع مجموعات (بالاشتراك).
٣ ـ الأخوّة والحب في الله.
٤ ـ الدعوة إلى الإسلام.. مفاهيم ومنهاج وواجبات.
٥ ـ القدوة الصالحة.. أخلاق قرآنية ونماذج ربانية.
٦ ـ الحاج أمين الحسيني.. رائد جهاد وبطل قضية.
٧ ـ الشيخ عزالدين القسّام.. قائد حركة وشهيد قضية.
٨ ـ الشيخ فرحان السعدي ـ الشيخ فريز جرار ـ الشيخ عبدالقادر المظفر
٩ ـ الشهيد عبدالله عزام.. رجل دعوة ومدرسة جهاد.
١٠ ـ ديوان شعر الدكتور يوسف القرضاوي ـ جمع وتقديم وتحقيق.
١١ ـ قصائد إلى الأم والأسرة.
١٢ ـ قصائد إلى المرأة.
١٣ ـ قصائد وأناشيد إلى الفتاة.
١٤ ـ أسرار حملة نابليون على مصر والشام.
١٥ ـ جبل النار. تاريخ وجهاد من ١٧٠٠ ـ ١٩٠٠.
١٦ ـ قصائد وأناشيد للانتفاضة.
١٧ ـ شعب فلسطين أمام التآمر البريطاني والكيد الصهيوني.
١٨ ـ نكبة فلسطين عام ٤٧/١٩٤٨.

١٩ ـ الجهاد الإسلامي المعاصر. . فقهه ـ حركاته ـ أعلامه .
٢٠ ـ الدكتور مصطفى السباعي . . قائد جيل ورائد أمة .

كتب تالية :

١ ـ سلسلة «أعلام المسلمين في العصر الحديث» .
٢ ـ سلسلة «من تاريخ الجهاد في العصر الحديث» .